النجف الأشرف

ألق معرفة، ووهج نضال

تأليف
الدكتور حسين عباس نصر الله

النجف الأشرف
ألق معرفة، ووهج نضال
جهاد الفكر الشيعي

طبع في لبنان

جميع الحقوق محفوظة ومسجلة

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

تنفيذ طباعي
دار القارئ
للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: ٠٣/ ٤١٣٢٥٦- بيروت لبنان
dar.alkari2012@gmail.com

النجف الأشرف

ألق معرفة، ووهج نضال

جهاد الفكر الشيعي

تأليف

الدكتور حسين عباس نصر الله

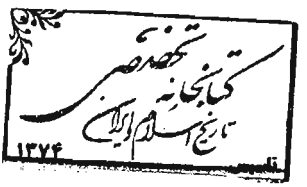

دار القارىء

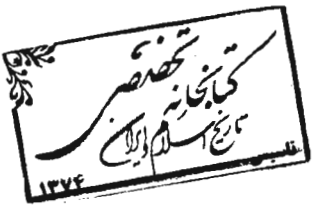

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمّة

النَّجَف رمالٌ، أشواكٌ، أزاهير بريَّة،

انتظرَتْ رُفاتَهَا أنبياء:

آدمَ، نوحٍ، ظلّت أرضاً خلاء...

الموعدُ، عليٌّ، استشهد عليٌّ في المحراب،

مشى النَّعشُ من كوفان،

رحل يتهادى مُطمئناً في الهواء،

لا تُنكِرْ، لا تقُلْ: هُراء،

لقد حملته الرِّيحُ التي سُخِّرَتْ لسليمانْ،

حُطَّ في المكانْ،

المرصودِ، للإمام الوصيِّ، في الصَّحراء...

الرمالُ، الحجارةُ.. تلوَّنَتْ بدم الشّهيد،

صارت عقيقاً، دُرًّا، يواقيتَ نقيَّة...

ضجَّت فيها حركة الشُّعاع الملائكيَّة،

ضريحُ عليٍّ عَبَقَ بأرج الزوّار،

الوصيُّ هنا، تنزَّلت الملائكةُ بالأنوار،

عُذْراً يا عليُّ، حَمَلْتَ عِلْماً، في حياتِكَ، ما أخذْناه،

بجوارك بعدَ المماتِ، طلبناه.

أمَّ الشيخُ الطُّوسيُّ مع مريديه الرِّحابَ

أنتَ نبعُ العلم، وزِّعْهُ جداولَ في حركةِ الطين والتُّراب.

غازلكَ الزوّارُ، غَزَلُهُم صلواتٌ، وابتهالاتُ، ودعاء...

أنشدكَ قصائدَهم الشُّعراء...

تفجَّر الفقهُ مدارسَ أسسها العلماء.

التفسيرُ الإعجاز، علوم القرآن،

آياتٌ صدعت بانتزاعات،

جاد بها أحفادُك مَعارِفَ للإنسان

النجفُ نزل فيها آيات:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾[1].

نفروا إلى النجف من كلِّ فجٍّ عميق، وعادوا إلى أهلهم مرشدين هُداة

توطَّن الفقهُ في النجف، وصارت أمَّ الكتاب...

تزاحمت فيها، مدارس، حوزاتٌ، طلاب.

---

(١) سورة التوبة: الآية، ١٢٢.

علماء، نُسَّاخ، حُفَّاظ، محدّثون، قُرّاء...

قالت النجف: يزهرُ العلم هنا، في جوار مرقدِ عليٍّ أبي الشهداء قرَّ العلم هنا: قرآنٌ، حديث، نهج..

ترعرعت الحريَّة هنا يحميها الإباء

وتحرسها الثورات..

الزمنُ أكل السنين،

ولدت النَّهضةُ، فُتحت أبوابُ الاجتهاد

لكل عويصةٍ مستجدَّةٍ جواب...

فتاوى، فتاوى، ويفرحُ المؤمنون بتسامح التشريعات.

عَصْرُ التنوير أهداها:

المطابعَ، الكتب الصُّحُفَ الدوريَّات،

خزائن الأسفار تعدَّدت، موقرةٌ بالمطبوعات والمخطوطات، نذورات لعلي، في المتاحف منمنمات..

قالوا: النجف عاصمة العلم الإسلامي هي ألقُ المعرفة، والثقافة الإسلامية.

لماذا تريد أن تستقل بهذا اللقب؟

هناك قمُّ، والأزهر، وفاس...

لماذا النجف؟ من ذكريات السنين يأتي الجواب:

قمّ، عاصمةٌ دينيّة لكنَّ لسانها غيرُ عربي مبين. . . فاس، أخذها الزمن إلى النّسيان.

والأزهر أعطى ولا يزال، لكنه جزء من القاهرة، المدينة المفتوحة على ثقافات العالم. . فيها ثقافات هجينة، وبعضها يكيد للإسلام. .

وتبقى النجف تحضن التراث صافياً تلوذ بضريح أمير المؤمنين علي، تنهل من فكره اللامحدود: حكمة وعلماً وفقهاً وشجاعة وتقى. . . أليست هي مدينةُ علي،

وهو باب مدينة علم النبيّ ﷺ؟

فتحت النَّجفُ بابَ الاجتهاد، فواكبت الحداثة، والعولمة، أطّرتهم في حركتها العلميّة، واضعة لإشكالياتهم الحلول الشرعيّة. . ،.

النجف عاصمة دائمة للثقافة الإسلامية، صفةٌ لا تمنح من الآخرين، بل تصنعها هي بتحقيق مقومات هذا العنوان، تنالها بإنتاج ذاتي لا تحتاج لاعتراف من الآخرين، هي تفرضُ نفسها بتراثها وثقافتها المتمثّلة بأمور منها:

١ - إنشاءُ مكتبة تضمُّ التراث الإسلامي والإنساني بأطيافه، ملايين المجلدات، وليس الآلاف. . . بنوعيّاتها تشدُّ الباحثين وطلاّب العلم من أقطار الأرض،.

٢ - إنشاء متحف إسلامي، يضم ما أنتجته أيدي المسلمين خلال العصور، من كتابات، ونقوش، وعملات، وملابس، وآلات وأدوات. . إحضار الإسلام أمام الأجيال الناشئة،.

٣ - إقامة مركز أبحاث إسلامي لتطوير العلوم الإسلامية، تتواصل فيه المؤتمرات والندوات التي تتناول شؤون المسلمين ووحدتهم، وتطورهم واستقلال بلادهم...

٤ - تعزيزُ الحوزات العلمية والجامعات المتعدّدة الاختصاصات: المعارف، الفقه، القضايا العلمية والاجتماعية.

٥ - المدينة الجماليَّة تجمِّلها الشوارع، والساحات، والحدائق العامَّة، والمجسَّمات الإسلاميَّة.

٦ - توفيرُ الأمن الاجتماعي، والخدماتِ الاجتماعيَّة الراقية.. هكذا تفرضُ نفسها، ويعترفُ بها الناس...

الفصل الأول

النجفُ، هويَّة

النجف

جاء في زيارة الإمام علي عليه السلام: «السلام عليك وعلى ضجيعيك: آدم ونوح». بقعة طاهرة حَنَتْ تربتها على أبي البشر والأنبياء آدم عليه السلام. ثم تشرفت بجثمان نوح[١]،

الذي ادّخر إلى جنب مرقده مثوى لعلي[٢].

أرض النجف معرفتها بالتاريخ الإنساني قديمة، بدأت مع آدم الذي توفي عام ٩٣٠ للكون[٣] ودفن في ثراها.

مُصِّرت النجف في الصحراء، وقد لطّف من جفافها نهر الفرات وحوّلتها جداوله أرضاً خصبةً تضحك بأزاهير الرُّبى، فقامت على أطرافها مدينة الحيرة، عاصمة المناذرة[٤]، وعلى مشارفها أيضاً أسّس العرب الكوفة عام ١٧هـ.

---

(١) ابن طاوس، عبد الكريم. فرحة الغري: ١٠٤.

(٢) روى ابن طاوس: «لما حفروا للإمام وجدوا ساجة مكتوباً عليها «بسم الله الرحمن الرحيم هذا قبر ادَّخَره نوح النبي لعلي وصي محمد قبل الطوفان بسبعماية عام» (فرحة الغري: ٣٥).

(٣) سبط ابن الجوزي. مرآة الزمان: ١/ ٢٢٤.

(٤) معجم البلدان: ٤/ ١٣٢٨.

أرض طيِّبة تعطّرت بشذى الأنبياء، وترنّمت بتسابيح الملائكة، واستحمَّت بابتهالات المؤمنين، يرفعون الصلاة، ويسألون الغفران.. الكلمات الطيِّبة تعانقت مع الورد، والحدائق الغنّاء، فاستلهم الشعراء جمالات الطبيعة النجفيَّة. قال علي بن محمد العلوي المعروف بالحمَّاني الكوفي (المتوفى سنة ٢٦٠ هـ):

فيا أسفي على النجف المغرَّى ... وأوديةٍ منوَّرةِ الأقاحي
وما بسطَ الخورنقُ من رياضٍ ... مفجَّرةٍ بأفنيةٍ فساحِ[١]

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي (المتوفى عام ٢٣٥هـ)[٢]:

ما إنّ رأى النّاس في سهلٍ ولا جبلٍ ... أصفى هواء ولا أعدى من النَّجفِ
كأن تربتَهُ مسكٌ، يفوح به، ... أو عنبرٌ دافَهُ العطّارُ في صَدَفِ
حفَّت ببرٍّ وبحرٍ من جوانبها، ... فالبرُّ في طرفٍ والبحرُ في طرفِ
وبين ذاك بساتين يسيحُ بها ... نهرٌ يجيشُ بجاري سيله القصِفِ
وما يزالُ نسيمٌ مِن أيامِنِهِ ... يأتيك منها بريّا روضةٍ أُنُفِ
تلقاك منه قبيل الصبح رائحةٌ ... تشفي السقيم إذا أشفى على التلف

(١) معجم البلدان: ٥/ ٢٧١.
(٢) نفسه: ٥/ ٢٧١.

التّسمية: مادة (ن - ج - ف)

قال الخليل بن أحمد (المتوفى عام ١٧٥ هـ): النّجاف: أرض مستديرة مشرفة على ما حولها، الواحدة نجفة[١]، وقد يقال لإبط الكثيب: نُجفةُ الكثيب: وهو الموضع الذي تُصفِّقُه الرياح، فتنجُفه فيصيرُ كأنه جُرْفٌ منجوف.

وقبرٌ منجوف، وهو الذي يُحْفرُ في عُرْضِهِ، وهو غير مضروح.

وقال الجوهري[٢]: «النجف والنجفة بالتحريك: مكان لا يعلوه الماء مستطيل، منقاد، والجمع نجاف».

قال ياقوت الحموي[٣]: «النجف: بالتحريك» وهو بظهر الكوفة، كالمسنّاة تمنع مسيل الماء أن يعلو الكوفة ومقابرها، وبالقرب من هذا الموضع قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه».

هذه التّعاريف تكشف خصائص هي ركائز مدينة النجف. منبسَطٌ

(١) معجم العين: ٦/ ١٤٤.
(٢) الجوهري، الصحاح: ٤/ ١٤٢٩.
(٣) معجم البلدان: ٥/ ٢٧١.

يمتدُّ فوق كثبان الرمال، لا يعلوه الماء حفاظاً على أجساد طاهرة من الأنبياء والأوصياء... وتأتي الدلالة الحرفيَّة (التعبير بالحرف) لتؤكد أصالة التسمية العربيَّة. الجذر (نَجْفَ) يتألف من حروف ثلاثة (ن - ج - ف) حرف النون في أول الكلمة يدل على الظهور والبروز، والجيم يدل على انبساط الامتداد، والفاء يوحي بحركة الرمال.. فالنجف ظهور وامتدادٌ وحركة.

علَّل الصدوق (محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي المتوفى سنة ٣٨١هـ) تسمية النجف قال: «عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: إن النجف كان جبلاً عظيماً، وهو الذي قال ابن نوح: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾[١].

ولم يكن على وجه الأرض جبل أعظم منه، فأوحى الله إليه يا جبل، أيعتصم بك مني!؟ فتقطّع قطعاً إلى بلاد الشام، وصار رملاً دقيقاً وصار بعد ذلك بحراً عظيماً. وكان يسمّى ذلك البحر «ني» ثم جفَّ بعد ذلك فقيل «ني جف» فسمي بنيجف ثم صار بعد ذلك يسمونه «نجف» لأنه كان أخف على ألسنتهم»[٢].

هذا الخبر قد يكون موضوعاً، ومنسوباً إلى الإمام الصادق عليه السلام.

فالطبيعة الصحراويَّة لا تضم أعظم جبل في العالم، وأين ذهبت تلك الكتل الصخرية؟ وهل بلغت الشام حقاً؟...

(١) سورة هود، الآية: ٤٣.

(٢) الصدوق. علل الشرائع. باب ٢٦ ص٢٢، آل محبوبة، جعفر. ماضي النجف وحاضرها. ٩/١.

وهناك دليل ينافي قدسيَّة المكان. إذ قد حلَّ غضب الله عليه، «فتقطّع قطعاً ثم صار رملاً ثم بحراً...» والأخبار الدينيَّة تؤكد أن المكان الذي يناله غضب الله، لا يصح أن يكون مرقداً للأنبياء والأوصياء.

وعلّق مصطفى جواد على هذه الأخبار بقوله: «هناك من الأخبار التي توردها بعض الكتب الدينيّة، والتي يتناقلها الناس عن بحر النجف وهو أنه كان يسمّى ببحر (النيّ) فلما جفَّ (النيّ) على حد قولهم قالوا (النيّ جف) ثم ما لبثت الياء أن سقطت في الاستعمال تخفيفاً فصارت (نجفاً) ومن هنا جاء اسم النجف «ومثل هذا الخبر أو الرواية التي أوردتها بعض الكتب يفتقر إلى كثير من الأدلّة لتصبح مقبولة»[١].

أسماء النجف: للنجف أسماء كثيرة منها: الطور، والظهر، والجودي، والربوة، ووادي السلام، وبانقيا، واللسان والغري والمشهد[٢].

(١) جواد، مصطفى، النجف قديماً: ١٢ (موسوعة العتبات المقدسة).
(٢) ماضي النجف وحاضرها: ١/٨.

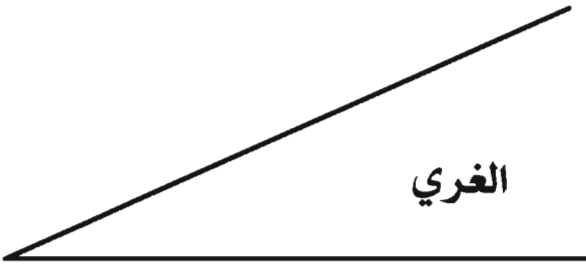

الغري

الغرَى: الحُسْن. ورجل غريٌّ: حسن[١]. والغِراء: الذي يلصق به الشيء. والغريَّان، وهما بناءان طويلان، يقال هما: قبر مالك وعقيل نديمي جذيمة الأبرش. وسمِّيا غريين لأن النعمان بن المنذر، كان يغرِّيهما بدم من يقتله إذا خرج في يوم بؤسه[٢].

وقد حدّد ياقوت موقع الغريين في معجمه قال[٣]: الغريّان تثنية الغريّ، وهو المطليّ، الغراء الذي يطلى به، والغريّ نُصب كان يذبح عليه العثائر، والغريَّان طربالان: وهما بناءان كالصّومعتين بظاهر الكوفة قرب قبر علي بن أبي طالب...».

(١) الصحاح: ٦/ ٢٤٤٦.
(٢) نفسه: ٦/ ٢٤٤٥.
(٣) معجم البلدان: ٤/ ١٩٦.

تاريخ النجف القديم

تاريخها يعني تاريخ «الحيرة» فالنجف كانت ضاحية الحيرة[١] وامتدَّت مع الزمن لتأخذ دور الأم.

«الحيرة مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف.. وبالحيرة الخورنق بقرب منها، والسَّدير في وسط البريّة..»[٢].

بدأت إمارة الحيرة سنة ٢٤٠م بمساعدة آل ساسان، وتولى إمارتها عمرو بن عدي بن نصر اللخمي. «وهو أول من اتخذ الحيرة منزلاً من الملوك»[٣].

دعم الفرس إمارة اللخميين التي شكلت حاجزاً يمنع إغارة القبائل العربية بما فيهم الغساسنة على بلاد فارس. وفي مقابل ذلك يعفون من (الإتاوة). وشارك اللخميون في الحروب التي خاضتها دولة الفرس ضد الدولة الرومانيّة الشرقيّة.

(١) تاريخ الطبري: ١/ ٨٥٣.
(٢) معجم البلدان: ٢/ ٣٢٨.
(٣) نفسه: ٢/ ٣٣٠.

ومنذ مطلع القرن السابع الميلادي عدل ملوك الفرس عن سياستهم الحكيمة مع إمارة الحيرة، «ووقعت الحرب بين قبيلة بكر التي احتمى بها النعمان بن المنذر أمير الحيرة، وبين الفرس ومن انضمَّ إليهم من عرب الحيرة، ودارت الدائرة فيها على الفرس في واقعة (ذي قار) بالقرب من الأنبار. ولم يمض على هذا الانتصار الذي ظفر به العرب وقت طويل حتى استعاد المناذرة سلطتهم على الحيرة، فولى إمارتها المنذر بن النعمان بن المنذر سنة ٦٢٨م)[١].

وظلّ أميراً عليها حتى دخلها المسلمون.

اشتهرت الحيرة بفنها المعماري، وما شيّد بجوارها من القصور، وأشهرها الخورنق والسدير. وقد اقترن ذكر هذين القصرين بالأسطورة، وزيَّن اسماهما كثيراً من القصائد العربيَّة.

قال عدي بن زيد العبادي[٢]:

وتبيَّنْ ربُّ الخورنق إذ أسـ ... ـرف يوماً وللهدى تفكير
سرّه ما رأى وكثرة ما يمـ ... ـلك والبحر معرضاً والسَّديرُ
فارعوى قلبه وقال: فما غبـ ... ـطةٌ حتى إلى المماتِ تصيرُ

وقال محمد بن علي العلوي الحمّاني[٣]:

كم وقفةٍ لك بالخوْر ... نق لا تُوازى بالمواقفِ

(١) سعاد ماهر محمد. مشهد الإمام علي في النجف؛ ٩٢.
(٢) معجم البلدان: ٢/ ٤٠٢.
(٣) نفسه: ٢/ ٤٠٣، ممالك الأبصار ١/ ٢٨٥.

بين القدير إلى السدير إلى ديارات الأساقف

ومن القصور الحيرية أيضاً: القصر الأبيض، العُذيب والصنبر، قصر الزوراء، قصر مقاتل، قصر الفرس، القصور الحمر، قصر ابن مازن، قصر الطين، قصر بني بقيلة[1].

(١) مشهد الإمام علي.. ٩٦.

تاريخ النجف الإسلامي

دخلت الحيرة تحت راية الإسلام عام ١٢هـ/ ٦٣٤م[١].

وأخذ نجمها يأفل بعد تمصير الكوفة عام ١٧هـ[٢] فتحوّل الناس إلى الكوفة. ثم أخذ اسمها يتلاشى أمام «النجف» و «الغري» أطلّت (فرحة الغري) مع دفن الإمام علي في هذه البقعة الطاهرة، يوم استشهاده في الواحد والعشرين من شهر رمضان سنة ٤٠هـ. وكانت زيارات المريدين تتمُّ بسريَّة إلى ضريح الإمام، الرابض بين ربوات ثلاث هي: «الذكوات البيض»[٣]. وظلَّ الكتمان عاملاً ينشر الأمان ظلالاً تحنو على القبر، وتحفظه من دنس الأعداء.

انتهت دولة الأمويين بعد معركة الزاب عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م. فبادر الشيعة إلى زيارة إمامهم علي عليه السلام. لما رأى داود بن علي العباسي، والي الكوفة، إقبال الناس على موضع القبر الشريف وتهافتهم عليه،

(١) البلاذري: فتوح البلدان: ٢٤٥.
(٢) نفسه: ٢٧٤.
(٣) فرحة الغري: ١٠١.

أراد أن ينبشه، فأرسل جماعة من رجاله وقال لهم: «امضوا إلى هذا القبر الذي قد افتتن به النَّاس، ويقولون: إنه قبر علي، حتى تنبشوه وتجيئوني بأقصى ما فيه»[١] لكن الوفد عاد يحمل إلى داود، أشدَّ رجاله بأساً، قتيلاً يتناثر لحمه لأنه تجرأ وأراد أن ينبش قبر الوصي[٢].

تاب داود، وأمر علي بن مصعب بن جابر أن يعمل على القبر صندوقاً عام ١٣٣هـ. ومات داود في العام نفسه.

«ولما استتب الأمر للعباسيين، ولم تعد بهم حاجة إلى مؤازرة العلويين ضد الأمويين قلبوا لهم ظهر المجن، وأعملوا فيهم القتل والنفي والتشريد، وكذا فعلوا بشيعتهم، فهُجر القبر الشريف ولم يعرِّس به أحد، إلاّ خلسة، فمكث على هذا الحال عشرات السنين لا يزوره زائر، ولا يطرقه طارق خشية بطش العباسيين، وتنكيلهم به»[٣].

عاد المرقد الشريف إلى الظهور عام ١٧٠هـ/ ٧٨٦م، أي في العام الذي تولى فيه هارون الرشيد الملك (١٤٩ - ١٩٣هـ/ ٨٠٩م).

استجاب الرشيد مثلما استجاب سلفه داود، لكرامة الضريح وصاحبه إذ احتمت الغزلان بالقبر وعجز هارون وأصحابه عن صيدها فأمر بأول عمارة ظاهرة على الضريح. «بنى عليه قبّة من طين أحمر وطرح على رأسها صبرة خضراء» أضاف ابن طاوس «وهي في الخزانة

(١) نفسه: ١٣٨.
(٢) نفسه: ١٣٩، مشهد الإمام علي: ١٢٧.
(٣) مشهد الإمام علي: ١٢٨.

إلى اليوم»[١]. بعد هذا التاريخ توافد الشيعة إلى جوار إمامهم طلباً للمثوبة فعمرت النجف وأخذت تتنامى، وبلغ عدد السادة العلويين الذين قطنوا النجف، ألف وتسعمائة في أواخر القرن الرابع الهجري[٢]. وأضعاف هذا العدد من الشيعة. وظلت في حركة ناشطة بلغت شأوها في القرنين السابع والثامن. لكنها تعرَّضت إلى جزر في القرن الحادي عشر لم يدم طويلاً إذ عادت لتأدية دورها العلمي والديني، والنضالي وبلغ عدد سكانها عام ١٣٥٢هـ/ ١٩٢٣ حوالي ٤٥ ألف نسمة[٣].

(١) فرحة الغري: ١٢٢، كانت المَحْبَرة لا تزال موجودة في خزانة الإمام على عهد ابن طاوس المتوفى سنة ٦٩٣هـ.
(٢) ماضي النجف وحاضرها: ١/ ٢١.
(٣) نفسه: ١/ ٢٣.

الفصل الثاني

النجف الحضاريّة

النجف الحضاريّة

«السلام عليك وعلى ضجيعيك آدم ونوح».

أول الأنبياء، وأول أولي العزم، وأول الأئمة المعصومين. أوائل الطهر ضمّهم ثرى النجف، فشمخت حبّاتُ الرمال، اخضرّت الصحراء، وصارت النجف من أهم مدن العالم، لا بقصورها، وحدائقها، وشوارعها، إنما بمن شرفوا تربتها، وأورثوها: العلم، والمعرفة، والجهاد، والحق والحضارة. النجف قلعة الصمود، غِيظَ من طهرها العُتاة، ألَّبوا أحزابهم، وسعوا إليها من أقاصي الأرض، ليخنقوا صوت الحق الذي ردّدته مآذنُها المُذَهَّبة، ودافع عنه رجال غَرَفوا من بحر علي عليه السلام: علماً واستلهموا سيرته شجاعة.

كانت المحنة قاسية، وتحوَّل الأعداء العتاة إلى متوحِّشين، لا يعرفون شيئاً عن الحضارة. وكأنهم ما سمعوا بها.

هدموا المدارس، وأحرقوا الكتب، وقتلوا الحكماء، وشردوا الطلاّب. كانوا أعداء الإنسان والإسلام، والمعرفة... أعداء النّور والخير.. إنهم دعاة الظلام وأبناء الشر، وإخوة الشياطين.

عاصفة الطغاة، ترتدُّ إليهم لتقتلع جذورهم، وتبقى النجف رمزاً حضارياً ما دام أوائل الطهر يرقدون في ثراها.

النجف إحدى عواصم العلم الإسلامي، تأسست لتكون جامعة علم، بل مدينة علم، ودأبت على خدمة الإسلام والإنسان والعراق، وما وَنَتْ في طموحها، وظلَّت تتقرَّى طريقها وسط أشواكِ عصور الانحطاط، مسهمة في تطور المعرفة، متحدِّية الاضطهادات السلطويَّة، شامخة لترصِّع صفحة الحضارة العربيَّة والإنسانيَّة، بعطاءات أدبيَّة وفنيَّة بقيت وقفاً عليها، ورشح دورها الإيجابي الفاعل من مسارب عدَّة.

اللقاء الطلاّبي

نفر إلى مدارس النجف طلاّبٌ دغدغ الإيمانُ أحلامهم واستهوتهم المعرفة. شبابٌ تباينت ثقافاتهم، وتنوَّعت لغاتهم وقوميّاتهم، التقوا على أرض النجف، تعارفوا وتقايضوا ألوان المعرفة، روى كل واحد منهم قصَّة بلاده، وأنماط العيش فيها، وحمل بعضاً منها مجسَّداً إلى الأصدقاء الجدد. من هذه الروافد المترعة بالتنوُّع - رشفت النجف - قبل العاصمة بغداد - بعض أنْباء المعطيات الحضاريَّة، والأنماط الثقافية، والأفكار العلميَّة والفلسفيَّة، والعقائدية. . . . وقد ينقل الطلاب إلى أساتذتهم في النجف أوصاف المخترعات، ومبادىء النظريّات العالميَّة لدرسها وإعلان الفتوى بشأنها. ومن النجف كانت تصدر فتاوى التحليل والتحريم إلى مسلمي العالم في شرق الأرض وغربها. وبعد التخصُّص يتخرج «النّافرون» علماء يؤوبون إلى بلادهم مُشبعين بروح الإسلام الذي رعته النجف وجدَّدته جيلاً بعد جيل. ومعظمهم قد كسب قرض الشعر بالعدوى. لأن الشعر غدا من مستلزمات الإجازة لدى بعض الأساتذة[1]. هذه الحركة المدرسيَّة

(١) عز الدين، يوسف. الشعر العراقي في القرن التاسع عشر، ٢٥.

المتنامية خلقت نهضة أشرقت مصابيح تنير زوايا لفَّها النسيان بظلامه، فرفعت نسبة المتعلمين، وأحيت مجد الكتاب... في الحقل الأول: فخرها أنَّها ضمَّت نسبة عالية من المثقفين، في حين كانت نسبة المتعلّمين في بغداد نصف بالمئة في منتصف القرن التاسع عشر - أكّد رحالة أوروبي[١]. «وهال النجف تدنِّي الإحصاء فجدَّت لرفع النّسبة، وخرَّجت جماعات مثقّفة تجوب المدن والقرى، ومضارب القبائل لمحو الأميَّة، وتفقيه الناس، لتردّهم إلى أصالة الإسلام».

(١) لونكريك (longrig). أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ٣٨٥.

النِّساخة والطّباعة

أمّا الكتاب فقد تبنّت تكثيره وتوفيره من مصدريه: النِّساخة والطباعة. الأولى ارتبطت بالخط، وقد حَبَتْه النجف بعنايتها. وكان تجويد الخط من بين العلوم التي يتلقاها الطالب، الذي ينسخ الكتب ويضمها إلى مكتبته الخاصَّة، وإلى خزانة مدرسته، ممّا أدّى إلى ظهور مكتبات عامرة يربو عدد مخطوطات كل منها على الألف[١]. وربما امتهنت أسرة نجفية النِّساخة وتوارثتها. فآل قفطان (في القرن التاسع عشر) اختصّوا بالوراقة ونسخ الكتب. وكان الشيخ حسن بن علي قفطان (المتوفَّى عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م) جيِّد الخط والضبط ينسخ المخطوطات ويبيعها، ولا سيما كتاب «الجواهر» المقرّر في مدارس النجف آنئذٍ فتزاحم الطلاّب ببابه يدفعون له المسكان (العربون) للحصول على نسخهم[٢]. وورث ابنهُ الشيخ أحمد (توفي ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م)، وقد أتقن الفقه وعلوم العربيَّة، وقرَض الشعر صنعة أبيه، واستمرَّ ببيع الكتب

(١) الأثري، محمد بهجت. أعلام العراق، ٢٧.

(٢) الخاقاني، علي. شعراء الغري: ٣/ ١٦، شبّر، جواد. أدب الطف: ٧/ ١٠٣.

للطلاّب حتى صلُح حالُه[١]. ومن أسرة آل قفطان، الشيخ حسين بن علي شقيق حسن السابق الذكر[٢]. وكان بارعاً في تنميق خطّه، تجاوز بعمله طلاب العلم إلى أثرياء البلاد ينسخ لهم ما يرغبون، لقاء أجر يفرضُه فرضاً[٣]. ولا أجافي الحقيقة إذا أعلنت أن النُّسَّاخ أدّوا دوراً بطيئاً في تكاثر الكتاب، لما يستغرقه النّسخ من وقت. وكان لا بدَّ من استخدام المطبعة للسير في ركاب النهضة الثقافيَّة الجديدة. فمتى دخلت الطباعة النجف؟.

لقد عرفتها عام ١٩٠٩م بجهود جلال الدين الحسيني صاحب مجلّة «حبل المتين» الفارسيّة، وأشرف عليها محمود اليزدي. وقدَّمت خدمات جُلَّى للنجف، فطبعت مجلة «العلم» النجفيَّة، بعد أن كانت تطبع في بغداد، وجريدة «نجف» الفارسيَّة، وكثيراً من كتب الأدب والفقه[٤]، لكن حاجة النجف إلى طبع المؤلَّفات الغزيرة التي صنَّفها علماؤها وأدباؤها أوجدت نشاطاً مطبعياً لا يُقاس بكثرة المطابع[٥] بل بغزارة المنشورات. وقد أجرى كوركيس عوّاد إحصاءً للمؤلفات العراقيَّة المطبوعة في العراق، فبان له: إن مطابع النّجف أنتجت ٤٠٪ من

(١) شعراء الغري: ٣/ ١٧٣.
(٢) توفي عام ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م.
(٣) شعراء الغري: ٣/ ١٧٢.
(٤) مجلة لغة العرب (٩١٢ ص٣٠٩).
(٥) أهم المطابع: الغري الحديثة ١٩٤٦، الحيدريَّة ١٩٢٤، العلميّة ١٩٣٦، النجف ١٩٥٥، النعمان ١٩٥٨، الآداب ١٩٥٨ (دليل الجمهورية العراقية: ٦٥٢).

الكتب المنشورة في العراق[١]. وبذلك يسَّرت المعرفة لعشاقها وزيّنت مطبوعاتها رفوف مكتبات العواصم العربيَّة. ومن ثمرات المطابع، الصحف، والمكتبات.

(١) عوّاد، كوركيس. معجم المؤلفين العراقيين: ١/ ٧.

الصحافة النجفيَّة

النجف سبَّاقة في ميادين التطور والتثقيف، مع الاتّصاف بالجديّة الموروثة من عبق الجوّ الديني. لما بدأت الطفرة الصحافية في العراق بعد إعلان الدستور عام ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٨م، بادرت النجف إلى إصدار المجلات العلميَّة والأدبيَّة الراقية[١]. في حين قلَّلت من الجرائد اليوميَّة[٢] التي تُعنى بالأخبار الثانوية والسياسية الملفّقة والخادعة. تلك الصحافة الصفراء التي عرفت بغداد منها العشرات، فكانت تُعطَّل بعد أسابيع أو أشهر. وقد يصدر منها بضعة أعداد وتحتجب بسبب المهاترات والشتائم[٣].

أما النجف فابتعدت عن الصحافة الرخيصة والتزمت بدورها الإيجابي، لذلك أكثرت من المجلاّت «النّضاليّة»، وتُعَدُّ مجلَّة «العلم»

(١) أمثال: مجلة العلم النجفيَّة، مجلّة الغري ١٣٢٨هـ/ ١٩٠٩، مجلَّة الحيرة ١٩٤٥/ ١٩٢٨، مجلة الاعتدال: ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢.

(٢) من جرائد النجف: الفرات ١٣٣٩/ ١٩٢٠، الاستقلال ١٢٣٩/ ١٩٢٠، الفجر الصادق ١٩٣٠.

(٣) بطي، رفائيل. الصحافة في العراق: ٧٢.

النجفيَّة أول مجلّة أدبية، علميَّة في العراق، أصدرها السيد محمد علي هبة الدين الشهرستاني عام ١٣٢٨هـ/آذار ١٩١٠م. قبل عام من صدور مجلّة «لغة العرب» المشهورة[١]. ونستشفّ أهداف «العلم» من شعاراتها «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» «اطلبوا العلم ولو بالصين» «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد» هذه الأحاديث كانت تُزين صور الصفحة الأولى لمجلة «العلم». وأخبرنا الشهرستاني في العدد الأول الدوافع التي حفزته إلى إصدارها، وهي: خدْمة الدين، ودور الإسلام في تطور العلوم في القرون السالفة، وتنوير الأفكار العامَّة. وأطرف أهدافه «رفع استيحاش مطالعة الصحف»، لعلمهم أنها تأتي بالكفر والإلحاد. حتى حرَّم بعض الزهّاد نشرها وقراءتها[٢]. وكانت «العلم» واسعة الانتشار في العراق لشمول موضوعاتها، ولأنها صدرت في عاصمة العلم عن عالم ديني له مركز مرموق..

وتخطّت حدود البلاد العربيَّة، وترجمت مقالات إسلاميَّة، عن صحف أجنبيَّة «الإسلام في اليابان وفي روسيَّة» عن صحف روسيّة. «الإسلام في أميركا» عن صحيفة «ويرلاند أرند ماير» النمسْاويّة[٣]. إن الصحافة النجفيَّة انصرفت تعالج المواضيع الإسلاميَّة، والقوميَّة، بروح

(١) أصدرها الأب أنستاس ماري الكرملي في بغداد عام ١٩١١. ورأس تحريرها كاظم الدجيلي النجفي.
(٢) مجلة العلم: العدد السنة الأولى ص٧.
(٣) مجلة العلم السنة الأولى: ٧٧.

نضاليَّة، وأسهمت في تحريك المجتمع الوقوفي في البيئة العراقية، هذه لمحة وجيزة عن الصحافة النجفيَّة، وبحثها مفصَّلة يحتاج إلى مقالات مطوَّلة.

المكتبات

قيل: «النجفيون صرعى الكتب والمكتبات»[١] تنافسوا في جمع الكتب، وتأسيس المكتبات، وانتشرت عدوى الهواية فأصابت الأميين، فقمّشوا الكتب، وهم لا يقرؤون، بل كان الفرد «يجد مع جهله لذّة في اقتنائها، وارتياحاً إلى الازدياد منها»[٢].

هذه الطفرة المكتبيَّة تعود إلى وراثة متأصِّلة في نفوس النجفيين، أحياها من جديد اهتمام العجم بجمع الأسفار. لقد حمل هؤلاء إلى النجف - قاصدين طلب العلم أو الجوار - خزائن الكتب، وضموا إليها ما ابتاعوه من بغداد والنجف وكربلاء[٣]. فرغبَ النجفيون في لَمِّ التراثِ القومي، الذي بدأ يتلاشى ويضيع، ويرحل بل يهاجر إلى خزائن الغرب... فطالب العلم يبغي مرجعاً قديماً، فلا يعثر عليه ولو فتّش بيوت العراق. فتيقّظ أنصار الأدب إلى أهميَّة المخطوطات، وسعوا إلى

(١) مقال لمحمد رضا الشبيبي: مجلّة لغة العرب ١٩١٢ ص٣٠٨.
(٢) الشبيبي، محمد رضا. مجلة لغة العرب عام ١٩١٢ ص٣٦٩.
(٣) المرجع نفسه: ٣٦٩.

جمعها وحفظها، وتخليصها من أيدي الأجانب الذين كانوا يبتاعونها ويرسلونها إلى القسطنطينيَّة، وبلاد أوروبة، حتى غصَّت النجف بالمكتبات. فكل طالب علم أو رجل دين له في منزله نواة مكتبة. وأهمها «خزانة أمير المؤمنين عليه السلام» وكانت تضم تسعة عشر ألف مخطوطة وكتاب موقوفة للمشهد المقدَّس يستفيد منها الطلّاب بشكل خاص. وتضم نوادر الكتب. وإلى جانب المكتبة يقوم المتحف الذي يتضمّن النذورات من العاديّات الذهبيّة والفضيّة، تلك التحف التي تؤلف ثروة فنيَّة، وماديَّة، إن القدسيَّة التي اكتسبتها هذه النذورات منعتها من خطة مدحت باشا والي العراق، والصدر الأعظم فيما بعد، تلك الخطة التي هدفت إلى مصادرة النذورات وبيعها لتمويل خزينة السلطان.

لقد تنجّمت المكتبات في بيوت العلم، وأغزرها مادة مكتبات آل القزويني وآل كاشف الغطاء، وبحر العلوم، والطباطبائي، والخاقاني، والشبيبي[١]. ولعناية النجفيين بالكتب، وتلبية لرغباتهم، كانت تقام سوق خاصَّة نهاري الخميس والجمعة، فتعرض الكتب دون سواها. ويتبارى الهواة في شراء الأعلاق، ويغالون في دفع أثمانها[٢] حتى أن الشيخ ميرزا حسين النوري المتوفى ١٩٠٠م كان يقايض الكتب بحلله الفاخرة[٣]. إن كان بعض هواة جمع الكتب أمِّيين، يجدون لذّة في فتح

(١) دليل الجمهورية العراقية لعام ١٩٦٠: ٥٤٠.
(٢) مجلة لغة العرب ١٩١٢. ص٣٧٠.
(٣) الدروبي، إبراهيم. البغداديون أخبارهم ومجالسهم: ٢٢.

الكتاب وعدِّ ورقاته، والاستمتاع بخطّه، فهناك فئة رعت عهد الكتاب فلهجت بحبِّه، وولعت بمطالعته، منهم الشيخ علي كاشف الغطاء الذي كان يقص على ناديه أحاديث المصنّفات، ومغامراته في جمعها.

لقد جاب بلاد الفرس والترك ومصر وسوريَّة والحجاز، لا للتسلية بل انتجاعاً للعلم والرواية، شافه العلماء وزار «دور الكتب» ونسخ بيده النوادر[1] وآبَ إلى النجف وقد تأجَّجت نارُ المعرفة في صدره، فأقبل يطالع ما جنى فكانت ثمرة قراءاته، كتاب «طبقات الشيعة» ترجم فيه لرواتهم ومحدِّثيهم وعلمائهم وشعرائهم وملوكهم ووزرائهم وأمرائهم.. على اختلاف العصور.

(١) منها ديوان كشاجم، وعن نسخته طبع هذا الديوان طبعته الأولى.

المنتديات الأدبيَّة

إن الأُسر العلميّة النجفيَّة حضنت الأدب من الضياع، وأقامت في منازلها ندوات شعريَّة وأدبيّة و «حسينيَّة» صقلت مواهب الشعراء بالمطارحات والمساجلات. فكان النّاشىء يجول من حفل أدبي إلى ندوة شعريَّة، يُنمي مواهبه، ويُباري زملاءه، ويُقيم الرهان مع أفراده، فيخسر إن حكم عليه شيوخ الأدب بالتقصير. وقد يقضي بصحبة أترابه أياماً في سفرةٍ ممتعة إلى ضواحي النجف يتنافسون في القريض، ويعودون بثروة شعريَّة تصف الرحلة وما تخللها من مبادرات وجدانيّة، وأحاديث إيحائيَّة، إن الجو الأدبي الحافل بالمسابقات، والتوجيهات، والأحكام والنقود، كان مخبراً فنياً ومدرسة تبعث النشاط في النفوس وتستنهض الهمم[1]، حدثنا علي الشرقي، رائد الكلاسيكيّة المتجدِّدة، عن ثقافته قائلاً: «بداية حياتي الأدبيّة، تتلمذت على نوادي شيوخ الأدب وعرافه وقادته، كانت هذه النوادي ملأى بشيوخ لهم وزنهم الأدبي، وقيمتهم الأدبيَّة، عليهم تتلمذنا... وللنجف في ذلك العهد

(١) الوردي، علي. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ١/ ٣١٣.

أثرٌ عظيم على الشعر فهي بيئة للأدب، ليس هناك أستاذ بعينه، تلقيت عنه، وإنما هناك محافل وأندية.. ففي هذه الحلقات كان الشباب يشارك ويتعلم»[١].

وقال كاظم الدجيلي الشاعر والكاتب الصحفي: «إنني لأتذكر أوائل أيامي حينما كنت أجالس بين الفينةِ والأخرى بعض كبار العلماء والأدباء في صحون مراقد الأئمة في النجف وكربلاء والكاظمية، فأنالُ العلم الغزير من مجالسهم في وقتٍ قصير»[٢].

هكذا كان موقع النجف من الشعر «نادرة من النوادر، وأعجوبة من الأعاجيب يُعنى أهلها بالشعر، وسماعه والحديث عنه، عنايتهم بالمسائل اليومية من أكل وشرب»[٣] وتعاطاه غِيرةً البقّالون والعطارون وأصحاب الحرف[٤].

هذه الفيوض الثقافيّة كانت بشير خير أغنت الموضوعات الشعرية وأمدّتها بصور راقية، فلكل شاعر ثقافته وطرائقه وميوله وأسلوبه، وصداقاته ومتى تعدّدت الأساليب ترِفَت المعاني. أما الصداقات فتحرك الاتصالات داخلياً وخارجياً، وتروِّج العلاقات بين الشعراء العراقيين وزملائهم في الأقطار وخصوصاً: لبنان وسوريّة. إذ تبادلوا قصائد

(١) جريدة البلاد (عدد ٥١٥٧) سنة ١٩٥٧.
(٢) جريدة البلاد (عدد ٤٣٢٩) سنة ١٩٥٥.
(٣) الجواهري. مقدمة الديوان: ١/ ٢٧.
(٤) الخليلي، جعفر: العوامل التي جعلت من النجف بيئة شعريّة: ٥.

الإخوانيات، والمديح، والتقريظ والرثاء والوصف والشكاية.. وكانت المجالس الحسينيَّة مدارس للحديث والتاريخ والشعر، والتفسير... مما أوجد أهازيج علويّة تغنّي ثورة اجتماعيَّة وسياسيَّة. لقد نضت القصائد الحسينية عنها القميص الديني المألوف، ولم تعد بكاءً وأحزاناً ومناجاة، بل غدت نور هداية فكريَّة تنشد إيقاظ المجتمع العراقي وإصلاحه، ولم يجرّد الشعراء احتفاءهم بعاشوراء من مضمونه الحضاري والسياسي، بل عكفوا على حادثةِ الغاضريَّة المتفرِّدة وأشبعوها تأملاً تنفعل به الذات، وترفده الانفعالات الخاصة.

مناصرة اللغة العربية

من فضائل النجف المحافظة على لغةِ القرآن الكريم. لئن رنّقت علوم اللغة عند نتاج الماضي، لاعتقاد علمائها بأن السلف قد ألمّوا بكل شواردِها، فقد حظيت باهتمام دائب، من علماء النجف، لارتباطها بالدين. فقراءة القرآن الكريم، وإدراكِ معانيه، وفهم مقاصدِه... مطالب تحتاج إلى تبحُّر في علوم اللغة. وكان مشايخ النجف يحثون طلاّبهم على إتقانها، وشاعت بينهم أبيات شعريَّة يرددونها باستمرار:

حفظ اللغات علينا

فرض كفرض الصلاة

فليس يضبط دينٌ

إلاّ بحفظ اللغات.

وكانت تصانيف النجفيين في مباحث اللغة وفيرة مع أنها تقليدية: شروح وحواش على ألفيّة ابن مالك والآجروميّة ومغني اللبيب[1].

(١) عواد، كوركيس. مباحث العراقيين اللغويّة: ١٧ - ٣٠.

ولما أتى العصر الحديث ملّوا رتابتها وشاقتهم التطلعات المستقبليّة وآلمتهم التيارات الوافدة المعادية لأصالة العربيَّة، فعلت أصواتهم منافحة عن لغة القرآن الكريم التي تعرَّضت لهجمات عنيفة من الأتراك والأوروبيين، واستيقظت في نفوسهم جذور قوميَّة عربيَّة دفنها جليد عصور من الانحطاط. فأكثروا من المقالات حتى ملأت صفحات الجرائد والمجلات. وقد يصدر العدد من المجلَّة، فلا نعثر فيه إلاَّ على مواضيع تمسُّ اللغة. وكان دفاعهم قوياً ومنطقياً، فهي أطول اللغات الحيَّة عُمراً، وأغزرها مادَّة، وأكثرها قابليّة للتطوّر... ثم تصدوا للمحاولات القاصدة إحلال العاميَّة مكان الفصحى بغية القضاء على الإسلام، والتراث العربي، والماضي القومي، وفي تحركات ناشئة شملت المقالات فقه اللغة. وتصدَّر لهذه الأبحاث خيرة علماء النجف وشعرائها[1]. فأضافوا إلى كرائم مدينتهم فضيلة لا تُنسى. ومن ينسى دور النجف الإيجابي، وقد جعلت من اللغة العربيَّة وما تحمله من موروث ديني وفني بُعداً من أبعاد الهويّة العربيَّة.

أما وقفت في وجه الهجمة التركيَّة الشرسة المعادية للإسلام والقوميَّة العربيّة؟. أما كان موقفها أصلب في وجه الاستعمار البريطاني من مواقف بغداد وسائر العواصم العربيّة؟ إن حركة التتريك طاردت اللغة العربيَّة من مدينة إلى مدينة إلى قرية... ولا مناصر لها. حتى

(١) منهم الشيخ محمد رضا الشبيبي (١٨٨٤ - ١٩٦٥). شاعر وناشر له مقالات لغويَّة فذّة بدأها في مطلع القرن العشرين. أولاها: «وضع اللغات وخضوعها للطبيعة». لغة العرب: عدد ١٢ عام ١٩١٢ ص٤٥٧.

تحصنت داخل سور النجف، الملاذ الآمن، في بيوت علماء رعوا العهد القائم بين اللغة العربية والقرآن الكريم في رحاب مدارس يشهد التاريخ أنها رفضت التعامل مع اللغات الأجنبيّة الهادفة إلى استعمار لغة الضاد. أو تحمل في طياتها بذور أشواك تدمي أنامل العربية والإسلام.

لقد رفضت جامعة النجف المتاجرات كلَّها ووقفت بدورها الإيجابي النامّ عن أمانة سماويَّة، يذلّل صونُها العقبات والصِّعاب.

إن ناضلت جامعة الأزهر القاهريَّة ضد العاميَّة والانكليزيَّة، وإن حمت جامعة الزيتونة في المغرب، اللغة العربية من هجمة البربريّة والفرنسيَّة الإيطاليَّة، فجامعة النجف حرست العربيَّة من غزو بضع عشرة لغة.

استطاعت أن تجتاح العاصمة بغداد ثم الموصل والبصرة. إن كفاح علماء النجف هزّ ضمائر بعض الكتّاب في بغداد فأثاروا مشكلة لغة بغداد التي غدت مزيجاً مروعاً من لهجات أعجميَّة أفسدت التخاطب بين سكان الأحياء، وباتوا يحتاجون إلى تراجم للتحادث فيما بينهم[١].

كتب رزوق عيسى مقالات عن لغة بغداد العاميَّة نشرها عام ١٩١١م في مجلة «لغة العرب» قال: «إن في لغة البغداديين على اختلاف مذاهبهم بقايا ألفاظ تركية، وفارسيّة، وكرديَّة، وهنديَّة، وانكليزيَّة، وفرنسية ورومية، وإيطاليَّة، وآراميَّة وعبريّة وآشوريَّة..»[٢]. هذه اللغات

(١) مجلة لغة العرب. العدد الأول: ٢٣٨.
(٢) المرجع نفسه: ٢٤٠.

ودَّت خنق العربيَّة في دارها لكن نجدة جامعة النجف درأت المخاطر وحفظت استمراريَّة الوجودين القومي والديني. وهناك ظاهرة مهمّة أكّدت دور النجف الطليعي في بناء الثورة الثقافية الجديدة في العراق. طمح الحكم، زمن العهد الملكي، إلى بناء مدارس وطنيَّة ولكنه اصطدم بعقبة ندرة المدرّسين، وجدوا في بغداد (الملالي) الأغراب، لكنهم يقرأون بلكناتهم «غير المغزوب عليهم ولا الذالّين»[1]. فاستنجد الملك فيصل الأول بالنجف، فأمدَّته بطلاّبها ومشايخها فكانوا بُناة النهضة الثقافيَّة الحديثة، وأساتذة النشء الذي قاد التحرير.. جاءت النجف على مرِّ العصور بآلاف الكتّاب، ومئات الشعراء. وقد ترجم علي الخاقاني للمعروفين منهم فأتى كتابه «شعراء الغري» باثني عشر جزءاً. ولا يلفت انتباهنا العدد، بقدر ما تشدّنا النوعيَّة والجودة. فهناك عشرات الشعراء المشهورين والمجدّدين أمثال: السيد موسى الطالقاني، (١٨١٥ - ١٨٨١م) ومحمد سعيد الحبوبي (١٨٥٠ - ١٩١٥)، ومحمد رضا الشبيبي (١٨٨٤ - ١٩٦٥م) وعلي الشرقي (١٨٩٩ - ١٩٩٧)، ومحمد مهدي الجواهري، وأحمد الصافي النجفي (١٨٩٧ - ١٩٧٧م).

هذه قطرة من بحر علوم النجف، وفيضه الزاخر في محيط المعرفة الإنسانية والتحضر العالمي، والتجدد الإسلامي. وستبقى النجف إكليل غارٍ على مفرق الإسلام والعروبة مهما عاندها الدهر.

(١) الهلالي، عبد الرزاق، تاريخ التعليم في العراق: ٥٠.

الفصل الثالث

النجف وَهْج نضال

النجف وهج نضال

عاش مجاهداً، وقضى شهيداً في محرابه، وصفاته هذه أورثها مثواه الأخير (النجف)، فتحرَّكت حبّاتُ رمالها تثير نقل المعركة ضد الطغاة، كلما حاول المجرمون تدنيس ثراها. وشمخت هِمَمُ رجالها في التاريخ ثائرة كلما تململت جيوش الكفر، تبغي مشرباً من دم الإسلام. ونسجت نضالها إكليل غار توَّج مفرق الحق، وزيَّن جهاد البشر. في النجف تكاملت قصّة المعارضة للحاكم الظالم أنّى كان وحيث حكم.

قامت النجف في ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ وعلى مشارفها «وادي السلام»[1]. فهي قبلةُ المؤمنين أحياءً وأمواتاً، ومن مثلُ المؤمنين ينصر الحق على الباطل، وإذا قتلوا في سبيل الله يأويهم وادي السلام، مهبط أرواح الصديقين.

النجف مدينة الإمام الأول، آمن نازلوها بولايته، ورفضوا الخضوع للحاكم، إذا لم يوزّع العدل بين الناس. والشيعة وحدهم من بين المذاهب الإسلاميّة رفضوا «الحاكم الجائر». وأنفوا من مبايعة الخلفاء

(١) مقبرة في ضاحية النجف.

الأمويين والعباسيين والأتراك العثمانيين. وعَدُّوهم مغتصبين لحكمٍ هو من حق آل البيت أو مجتهديهم، (ولاية الفقيه)، فغَدوْا شوكة صعبة في جسم الخلافة الزمنيَّة المتعاقبة.

والتاريخ يروي أن معظم ثورات المسلمين المحقّة لمناهضة الطغيان، حرَّكتها أفكار الشيعة، الذين قدَّموا الشهداء بسخاء، وأُوذوا وشُرّدوا في الحق والحريّة والعقيدة. وتطلعات ثوراتهم رادت آفاق الإنسانيَّة في سبيل الإنسان. إن سبب إحدى أكبر ثوراتهم في العصر العباسي، ردُّ المظالم الاجتماعيّة. لقد التقى أحد زعماء العلويين امرأة تسير في أسواق البصرة، جائعة تشكو العسف الذي لحقها وأطفالها من ولاة العباسيين، فانتصف لها ولأمثالها بثورة أودت بحياته.

هذه النزعة الثوريّة توارثها زعماء الشيعة، ولما اتخذوا النجف مركزاً لهم حولوها إلى (منتدى نضالي) يسوس شؤون المسلمين، ويناصر المستضعفين أينما كانوا، وإلى أية فئة انتسبوا.

في العهد التركي

قادت النجف الانتفاضات ضد تسلط الأتراك الذين حكموا البلاد العربية باسم الإسلام. وتوجّهها أضفى على تحركات الشعب صفة الشرعيَّة. فرنت إليها أنظار الثائرين تكتحل بألوان مشاعلها النضاليَّة العنيدة. وما الفتاوى والبرقيات العنيفة اللهجة، الصادرة عن النجف، لكلٍّ من سلاطين تركية وشاهات إيران، إلاّ صورة من صور التفرُّد الديني للنجف.

حتى أن مفكري الأتراك طالبوا محمد كاظم الخراساني - المرجع الديني - عام ١٩٠٧م بالإبراق إلى السلطان عبد الحميد كي يعفو عن أحرار تركية[١]. وشارك النجفيون في جمعيّة (انجمن سعادت) في الآستانة. ومثّلهم في الجمعيّة الشيخ أسد الله المامقاني[٢].

(١) الأسدي (حسن). ثورة النجف: ١٠.
(٢) المرجع نفسه: ٨٤.

الاستقلال الذاتي

حققت النجف استقلالاً ذاتياً داهرها، تمثل في القضاء والفتاوى. فعلماء الدين يفضّون الخلافات والخصومات بين السكان. حتى أن القضاة الأتراك في النجف شكوا من الفراغ، إذ يمرُّ العام ولا ينظرون في دعوى واحدة.

وفي حقل التّعليم اكتفوا بمدارسهم الدينيَّة التي نحَّت التركيَّة وحضنت العربيَّة وآدابها.

أما التنظيم المالي فكان الشيعة يؤدون الخمس والزكاة إلى المرجعيَّة الدينيَّة، ويقاومون بشدَّة جباية الضرائب من قبل السلطات التركيّة، وتمرُّد القبائل المحيطة بالنجف لم يخل منه عام واحد طيلة القرن التاسع عشر[١]. حركات قادها زعماء كانوا على اتصال دائم برجال الدين، يعملون بتوجيهاتهم ونصائحهم القاضية بعدم دفع الضرائب إلى ولاة ظالمين، لا يصرفون الأموال في وجوهها الشرعيَّة، بل يستعينون بها على الظلم وممارسة المحرّمات. ورفض النجفيون

(١) الكركوكي، رسول. راجع دوحة الوزراء.

الانخراط في جيش العثمانيين، وقاوموا الجنديَّة الإجباريَّة التي تزجُّ بهم في حروب لا يؤمنون بها، وهي عادة ضد إخوتهم العرب والمسلمين.

لكن الأتراك كلما شعروا بقوّتهم، وأحسّوا بضعف في المدن المقدَّسة قادوا الجيوش، لإخضاع كربلاء والنجف، وتجريدهما من الاستقلال الذاتي، ولخنق الأصوات التي تطالب بالعودة إلى الأصالة الإسلاميَّة.

وحوادث النزاع مشهورة في تاريخ المدن المقدّسة تصدّت للأتراك والوهابيين، والانكليز والحكومات الوطنيّة العميلة[١].

مع الوهّابيّة: أغار الوهابيون أول مرَّة على العراق عام ١٧٩٧م طمعاً في ذهب الأضرحة المقدَّسة، ومُناوَأة لعقيدة الإمامة، لكنهم أخفقوا فأعادوا الغارة ودخلوا كربلاء عام ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م وقتلوا آلافاً من سكانها، وتقدَّموا حتى أسوار بغداد. ولما قصدوا النجف تصدَّت لهم ودحرتهم في غاراتهم المتتابعة ١٢١٩هـ/ ١٨٠٤م، ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦، ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م. وذلك بفضل علماء الدين الذين نظمّوا السكان وقادوا المعارك، ثم دافعوا بالكلمة فألفوا الكتب للرد على الوهابيَّة، وادعاءاتها الباطلة[٢].

---

(١) آل محبوبة، (جعفر). ماضي النجف وحاضرها: ١/ ٢٣٥. سركيس، يعقوب: مباحث عراقية ١/ ٥١.

(٢) مثال: منهج الرشاد لمن أراد السّداد في الرد على الوهابيين. جعفر كاشف الغطاء.

مع شاهات إيران

دور النجف الفعّال تعدَّى العراق إلى إيران. في عام ١٩٠٦ وصلت رسائل من علماء إيران إلى مشايخ النّجف، ومنهم أبو الأحرار الشيخ محمد كاظم الخراساني، يطلبون تأييدهم في صراعهم مع الشاه. صراع نشب بين الديموقراطيّة والاستبداد. بين «المشروطيَّة» أي الحكم المشروط بالدستور، و«المستبدَّة» الحكم المعارض لإقامة «مجلس شورى»، ويفوِّضُ الشاهَ أمر الرعيَّة. وكانت الزعامة الدينيَّة في النجف متحرِّرة تراقب التحرُّكات العالميّة، وتتبصَّر بها، وتستنير بنتائجها. وأخذ علماء النجف المبادرة، ووجّهوا حركة التحرر الإيرانيَّة من النجف، بعيداً عن سلطة الشاه ورقابته. لقد أرسل الخراساني إلى الشاه مظفّر الدين كتاباً جاء فيه: «يا منكر الدين، ويا أيها الضال... اترك سند الشيطان، وانشر بياناً فيه الحريَّة للناس... وإذا حصل تأخر منك عما نطلب فإننا سوف نحضر جميعاً إلى إيران، ونعلن الجهادَ ضدَّكَ، فلنا في إيران أتباع كثيرون...»[١]. وبوجود الخراساني، وبفضل فكره

(١) كمال الدين، محمد علي، التطور الفكري في العراق: ٢٤.

المتحرر، غدت النجف قبلة أنظار الدول المجاورة، لأنها ضمّت إلى الزعامة الدينيَّة الزعامة السياسيَّة، وخصوصاً بعد أن ألزمت الشاه القاجاري بإعلان الدستور عام ١٩٠٦م. وتسارعت أخبار المشروطة إلى الهند وتحدَّثت مجلّة «حبل المتين» الهنديَّة عن الخراساني، وأكبرت دوره النضالي، ونهضتُه السياسيّة والدينيَّة، وباركت روح الانبعاث التي فجَّرها، وناصرته ضد السلطتين التركيَّة والإيرانيّة، بعد أن اتفقتا على مناهضة كلِّ مطالبٍ بالدستور.

لكن النجف وقفت بحزم عام ١٩١١م إلى جانب إيران ضد روسيّة القيصريّة وأرسلت المتطوعين، وأرهبت بفتاواها الجهاديَّة، وصرخاتها المجلجلة جيش الروس، وأسهمت في ارتداده خاسئاً.

مجاهدة الانكليز

قبل الحرب العالميَّة الأولى كان علماء النجف يخطِّطون لاستقلال البلاد[١]. وقطفوا ثمار تحركاتهم، فكانت مدينتهم أول ثائرة على الأتراك إبّان الحرب وطردتهم عام ١٩١٥م إلى غير رجعة. وعاشت مستقلة ما بين (١٩١٥ - ١٩١٧م). أخرجت الأتراك وقاومت الانكليز، وليس تناقضاً أن عاد النجفيون يتحالفون مع الأتراك على مبدأ المساواة، وحاربوا جنباً إلى جنب ضد الإنكليز أعداء الدين. أعلن علماء النجف الجهاد المقدّس. واتصلوا بأطراف العراق سرّاً وعلناً لمناهضة المستعمر الجديد.

وقادوا فرق المتطوّعين، ونظموا صفوف المقاومة، فرأس المشايخ كتائب المقاتلين في جبهات الحرب[٢]. وأذكر منهم محمد سعيد الحبوبي المجتهد والشاعر، رأس المجاهدين في الجناح الأيمن (الشعيبة) ولقب بشهيد الشعيبة[٣]. واشترك المئات من العلماء والآلاف

(١) مغنيّة، محمد جواد. مع علماء النجف الأشرف: ١١٥.
(٢) ثورة النجف: ٥٩.
(٣) الخاقاني، علي. شعراء الغري: ٣/ ١١٠، ديوان محمد سعيد الحبوبي: ٧.

من المتطوّعين، لكن الأتراك أساؤوا التصرف مع العراقيين المجاهدين، وتناسوا أن النجفيين حلفاء لا أتباع وعبيد. فعاملوهم بصلف حتى خسروا الحرب، فدخل الانكليز النجف.

ومنذ أن وطأت أقدامهم أرضها عام ١٩١٧م سلكت المقاومة شتى السُّبل لطردهم، من إطلاق النار على الجنود البريطانيين، وعلى طائراتهم الحربيَّة التي كانت تبثُّ الرعب بتحليق منخفض، وقتل، واغتيالات للمسؤولين البريطانيين، ومهاجمة مراكز العدو وسلبها وحرقها. وبذلك تحوَّلت النجف إلى مخبر فعَّال للفكر السياسي والديني ينشىء القول الذي يصنع الحياة. حتى أن الكاتبة «بيل» في حديثها عن العراق، خصَّت النجف أكثر من غيرها، وصوّرتها مارداً أرعب المسؤولين الانكليز، فكلَّما حلّوا معضلة من مشاكل النجف تولَّدت أخرى. وكلما ابتسموا لنصرٍ حققوه، قلقوا لاضطرابات نامية تهزّ استقرارهم[١].

ومن مظاهر المقاومة تأسيس «جمعيَّة النهضة الإسلاميَّة» في النجف رأسها علماء الدين[٢]. ومبادئها أشعلت ثورة العشرين، لأنها نادت بالعروبة، وتغنّت بالوطنيَّة، ضمن مفهوم الإسلام. وسعت إلى تخليص البلاد، من رجل أجنبي، حاول أن ينتزع السلطات الزمنيَّة والروحية من علماء الدين، ويخنق صوت الحق الذي يمثلون تمهيداً للسيطرة على العراقيين. وقدّمت النجف شهداء في المعارك مع الجيش البريطاني

(١) المس (بيل). فصول من تاريخ العراق: ١٥٥.
(٢) ثورة النجف: ٣٥٨.

الذي هُزِم مرات أمام مقاومة الثّوار. وأثمرت الثورة، وإن أُخمِدَت، فقد أجبرت الانكليز على تغيير خطتهم في حكم العراق، فتخلّوا عن مبدئهم التسلطي، المنفَّذ في سائر المستعمرات وخصوصاً الهند. والذي ينصُّ على تعيين حكام من الانكليز في كل المقاطعات المحتلَّة. وأمام صلابة المقاومة عمد المستعمر إلى تنصيب حكام من العراقيين الموالين في مقاطعات حساسة. وإذا كانت ثورة عام ١٩١٨م قد حضّرت لثورة العشرين في العراق، فإن شرارتها الأولى انطلقت من النجف.

عندما أعلنت بريطانيا في ٣ آذار ١٩٢٠م وضع العراق تحت ظل الانتداب البريطاني، سخطت النجف، وعبّرت عن غضبتها بآلاف المنشورات الناقمة، وسرَّبتها في أنحاء البلاد. وتولّت تحريك زعماء العشائر والمدن، ووجوه بغداد.

وصدرت فتوى الميرزا الشيرازي بإعلان (الثورة العامة) وكانت الفتوى واعية ومسؤولة محَّصت وجوه المنافع والمضار من حرب ضدّ مستعمر شرس، يستغل الشعب وموارده أسوأ استغلال، وتجاوب علماء بغداد فأكدوا فتوى الشيرازي. وأطلقت النجف الرصاصة الأولى لثورة العشرين في ٣٠ حزيران عام ١٩٢٠م[١]. وانسحب الانكليز من مدينة «علي» التي بادرت إلى تأليف حكومة محليّة تتولّى إدارة البلاد، وعقدت زعامة الثورة للمرجع الديني الأعلى الميرزا محمد تقي الشيرازي. واتَّخذت النجف مقرّاً للثورة العراقية من بدايتها حتى نهايتها. ولجأ إليها

(١) ثورة النجف: ٣٨٣.

الخائفون والمتذمرون من سياسة الاحتلال. وكانت قبلُ ملاذ الهاربين من سلطة الأتراك، لِما حققت من استقلاليَّة. ولعبت دور مصر التي حضنت أحرار البلاد العربيّة زمن الاستبداد الحميدي.

هكذا فجّرت النجف الحركات السياسيَّة التي ظهرت آثارها في معظم المناطق العراقية، لأن أكثر من سبعين بالمئة من السكان لا يتحركون ما لم يستأذنوا النجف سرّاً أو علناً، وخاصة في أمر الجهاد.

إن تجاهل الأتراك دور النجف الطليعي باح به الانكليز مرغمين، وهذه مقتطفات من أقوال مسؤوليهم في العراق، وهي أقوال تشهد للنجف بالتفرد النّضالي ضد الاستعمارين الداخلي والخارجي، فكلاهما ظالم. وترسم لها صورة جندي مجهول حمل مشعل النّضال لتحقيق إنسانيّة الإنسان.

قال حاكم النجف السياسي عام ١٩١٨م: «بالرغم من انعزال النجفيين فإنهم يستلمون ويوزعون جميع أخبار العالم عن طريق الزائرين المتدفِّقين على بلدهم المقدَّس، ولذلك يستطيعون أن يتمتّعوا بتأثير ضَارٍ يتعدَّى حدود بلدتهم، وحتى حدود العراق»[١]. وقال (موبرلي) Moberly عن نفوذ النجف: «إن نفوذها يندفع متموِّجاً فوق أرض العراق، ويجتاز حدودها إلى إيران، حيث تُقرَّر قضايا كثيرة من شؤونها في النجف بعد رضى المجتهدين الذين لهم نفوذهم في بغداد وطهران»[٢]. وقالت الكاتبة

(١) الدرة محمود. الثورة العراقية: ١٨٩.
(٢) ثورة النجف: ٣٧٤.

«بيل»: قبل أن تبدأ المشاكل العلنيَّة في بغداد كان العنصر الديني الشيعي في المدن المقدّسة منهمكاً في حَبْك الدَّسائس ضدَّنا»[١]. إنها وقاحة الاستعمار.

هذه نظرته إلى التحرُّكات النّضاليَّة الاستقلاليّة، فهموها دسائس تضر بمصالحهم، فراقبوها، وحاولوا دفنها في جليد الوقوفيَّة الخانعة.

قال (السر برسي كوكس): «غير أن النجف التي كانت إدارتها في قبضة زمرةٍ من شيوخها المحليين، الذين لم يرضوا الانقياد للنُّظم. بقيت شُوكة في جسم إدارتنا»[٢]. القادةُ الأحرار هم زمرة وعصابات في مفهوم الانكليز...

وأقول: إن النجف أول جامعة خرَّجت عظماء ناصروا الدين والإنسان، والحريَّة والفكر.. وحاربوا الاحتكار والاستبداد والمستبدّين، وهزوا الكيان البريطاني، يوم كانت بريطانية الدولة الأولى في العالم. وقبل ذلك ضعفوا العرش العثماني، وأخافوا شاهات إيران، ويرعبون باستشهادهم حاضراً الحكام الجائرين[٣]. إن جذوة الشهيد الثالث، محمد باقر الصدر، لا تطفئها مياه دجلة والفرات..

(١) فصول من تاريخ العراق: ١٥٦.
(٢) تكوين الحكم الوطني في العراق: ٣٧.
(٣) إن جذوة الشهيد الثالث لا تطفئها مياه دجلة والفرات.

الفصل الرابع

النجف ألَقُ المعرفة

النجف ألَقُ المعرفة

الكعبة المقدّسة بيتُ الله تبارك وتعالى والمدينة المنوَّرة بيتُ رسول الله ﷺ، والنجف الأشرف منزل أمير المؤمنين علي عليه السلام. مدنٌ تواصلت وتراحمت اتصال الوحدانيَّة، بالنبوّة، بالإمامة، النجف ثالث مدينة مقدَّسة غدت مقصداً للزوّار، تهوي أفئدتهم إلى رحابها في أروقةِ ضريح الوصي.

بدأت قصتها يوم دُفن الإمام علي في ثراها عام ٤٠هـ/ ٦٦١م. فتعانقت نبوّة التاريخ القديم مع إمامة التاريخ الحديث، نبوّة نوح الوفيَّة التي ادّخرت روضةً لتضُمَّ جثمان الوصي. إن روح علي بن أبي طالب عليه السلام هيمنت على النجف، فمنحتها عبقاً دينياً. بخُورُه ماز المدينة عن سواها. وتفاعل الدور الديني مع الحياة الإنسانيَّة، فتولّد التيار الحضاري يُغرق بيوت النجف بالعلوم والآداب، ثم يفيض منتشراً في مدن الأقطار المجاورة والبعيدة، والدين والحضارة في حركتهما الدائمة يتوقان إلى سعادة الإنسان في العاجلة والآجلة، ويحصدان الأشواك من درب مسيرته، باذري التطوّر والثورة.

مرقد الإمام علي عليه السلام وهب النجف الحياة، ومنحها قدسيَّة جذبت المؤمنين من أقاصي الأرض أحياءً وأمواتاً. وأصبح الدفن في ثرى النجف منية المسلمين، والجوار ملاذ الخائفين. والجوار نمَّى الموقع الصحراوي بشريّاً، وبلور فكرة التعليم الديني، الذي بدأ بحلقات (عُلْويَّة) حول ضريح علي. يستمد الأتباع من سيرة إمامهم فاعلية تمحو الإملال. إنها موجبات المُلهِم، وسطوة ظله المؤثّرة. أما جذب مرقد سقراط طلابه قدماً فتحلّقوا حول ثراه؟ يتمارون في كشف الغوامض، وكأن روحه تطل موحية إليهم بومضات المعرفة المفقودة. تلك سقراطية، وهذه علويّة. الأولى غشيها الزمن فبادت بجيلٍ واحد. أمّا الثانية فتحدَّت الزمن، وخلقت أجيالاً، وخلقتها الأجيال، لأنها علويّة مرتين: الموجِد، والموجَد، إله يريدُ أن يُعرَف قبل أن يُعبَد لتكون العبادة بمحيط المعرفة، وعابدٌ يبغي المعرفة لتحلو العبادة. ومورِدُ المعرفة العباديَّة مدارس النجف، جامعة العلم الإسلامي الشيعي طيلة قرون. السبَّاقة إلى فتح باب الاجتهاد، وفلسفة الفقه، والمناهج، وطرق التدريس.

تاريخها العلمي

بدأ تاريخها العلمي مع رحلة الشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي الذي هجر بغداد عام ٤٤٨هـ/١٠٥٦م. هرباً من ظلم السلاجقة، ليستقر في النجف، وقد رافقه في رحلته معظم طلاّبه[١]. واستمرّت المدينة إلى اليوم يؤمها الطلاب من شتّى البلدان الإسلاميَّة، لارتشاف المعارف من مدارسها الدينيَّة، التي تُعنى بالفقه والأصول، والتفسير، والحديث، واللغة العربية وآدابها، وعلم المنطق.. يتولّى تدريسها أساتذة من خيرة العلماء والفقهاء والفلاسفة والمؤرخين والشعراء والأدباء[٢].

ومن حسنات مذهب أهل البيت عليهم السلام. فتح باب الاجتهاد، الذي مارستهُ النجف وغيرها من مراكز الدراسة الإسلامية الشيعيَّة، وفي ذلك

(١) آل محبوبة، جعفر. ماضي النجف وحاضرها: ٢/ ١٢٠.

(٢) أهم أساتذة النجف «المراجع». المجتهدون أمثال الشيخ مرتضى الأنصاري صاحب المكاسب، والشيخ محمد كاظم الخراساني صاحب كفاية الأصول، والشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، والسيد محسن الحكيم، والسيد أبو القاسم الخوئي، والشهيد الثالث السيد محمد باقر الصدر..

فخرها واعتزازها. فتح باب الاجتهاد يملأ الفراغ المتولّد من تعاقب الأجيال الإسلاميّة. لقد سايرت الجامعة تطور الحياة البشريَّة، ولم تقف متعنِّتة أمام المكتشفات الحديثة، بل ظلَّت في حركة وتقدّم، تبيّن المنافع والمضارّ في المستحدثات كلّها[١]. راغبةً في حمل أمانةٍ سماويَّةً تتمثل بصيانة الدين الإسلامي واستمراريته، وتشذيبه وتحريره من الجمود الذي فرضه النَّقْليون. ووعى علماؤها وطلابها حقيقة هذا الأمر. فأتى التدريس في النجف مجاناً «فلا الأستاذ يقبض أجراً، ولا التلميذ يتكلف شيئاً، تنزيهاً للدين عن الكسب والاتجار»[٢].

وهذه الميزة وفرّت لها استقلاليّة تامَّة، فلم تخضع للسلطات المستعمرة، والمستبدَّة، ولم تتلقّ منها معونات ماديَّة[٣]. وتمسكت بالعربية، ورفضت اللغة التركية، وأصرَّ مجتهدوها على تأدية جميع أجزاء الصلاة بلغة القرآن. في حين أجاز بعض المذاهب الإسلامية تأدية جزء منها بلغات مختلفة. منهم أبو حنيفة.

لقد أدَّت دور الأصالة والصدق، أصالة المبدأ المقترن بالفعل، والمرتبط بالصدق في الدعوة الإنسانيَّة. منهجها شموليَّة العطاء قوميَّةً وإنسانيَّة، قوميَّة بعربيتها وعروبتها، وإنسانيّة بإسلاميتها.

---

(١) الكفائي، محمد كاظم. عصور الأدب العربي: ١٧.

(٢) مع علماء النجف الأشرف: ١٢٠.

(٣) لم تتعامل مع الولاة الأتراك ولا المندوب السامي البريطاني. لكنها قبلت قديماً هبات من الصفويين.. أمّا حديثاً فميزانيَّة المرجعيَّة في بعض السنوات تفوق ميزانية بعض الدول الصغيرة، وواردتها من الحقوق (خمس - زكاة).

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[١]. هل عقل العربُ ذلك؟ تاريخهم يجيب بالنفي! وتاريخهُا يصرخ نعم! وبات في عنق كل عربي دَيْنٌ لجامعةِ النجف، تتجمّع في سماء البلاد العربيّة بتلاحق صيحات قوميَّة دعائيَّة جوفاء زادت القوم تمزيقاً، أمّا النجف فسلكت طريق العمل الصامت بجديَّة، ثبتَ رجالُها على مبدأ القرآن فناصروا لغته، رغم تحديات تركيَّة، وعرَّبوا سبل الوافدين من إيران والهند والتيبت وباكستان... يطلبون معارفها الإسلامية.

النجف ظئر الإسلام أرضعته أفاويق التجدد النّامي، فكان حليبها ماء الحياة، من شربه كُتب له الخلود. حليبها سلسلة مدارس حلقاتها متّصلة. صدَّرت قوافل من الخريجين موقرة بالنّوابغ والمجتهدين والفلاسفة والشعراء...

هذه القوافل دفعت أمين الريحاني إلى القول: «النجف أعظم مدينة في العالم، لا في زخارف بنائها، وجمال قصورها، بل في رجالها الذين هم أمثال الإمام علي عليه السلام..»[٢]. نقل رجالها بأمانة تعاليم الإسلام من عهد إلى عهد وحرسوها بسهرهم الدؤوب، وقرعوا بأقلامهم صفحات الحق، فانفتحت لهم، وأسكتوا اعتراضات المفسدين، ولولاهم تمكّنت شبهات الضلال، وعصابات الكفر من اختراع تدافع الموج الإسلامي، وزرع الحيرة في نفوس المسلمين.

(١) سورة فصلت، الآية: ٣.
(٢) الريحاني، أمين. قلب العراق: ٢٤٧.

لقد تعاونت جامعتا النجف والأزهر، ووقفتا بوجه الطامعين في تمزيق وحدة المسلمين إلى مذاهب وفرق لا حصر لها. لأن الأبالسة والمخدوعين كُثر، وكلهم يحلمون بتزوير هويَّة الإسلام، وإبعاد المسلم رويداً رويداً عن منابع الدين الحنيف، حتى يغرق في بحر الشرك، ويغدو أداة طيّعة في يد المستعمر، يسير وراء سراب كاذب من «العلمانيَّة» تلوح له «من بعيد تحرِّف الكَلِم عن مواضعه، وتشتري بآيات الله ثمناً قليلاً، وترفع راية الإسلام على مساجد الضِّرار»[١].

(١) قطب، سيد. العدالة الاجتماعية في الإسلام: ٢٩٣.

مدارس النجف

إن مدارس النّجف متواضعة بناءً، شامخة بمعارفها الدينيَّة، ومجالسها الروحية، وتعدّ بالعشرات في كل قرن[١]. تندثر مدرسة بموت مؤسسها لحاجتها للمال، فتُشاد أخرى بجهود ثري أو عالم، إنها أنموذج الحياة المستمرَّة، التي تصنع الإنسان المثقف والمتحضّر لا تقنياً بل روحياً فيؤتى الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا﴾[٢].

وتتألف المدارس المنزرعة في أحياء النجف، من غرف متعدّدة، وصحن للدراسة، أما الغرف فيستقل كل طالب بغرفة يستخدمها للنوم، والمأكل، والمطالعة، والصحن عبارة عن قاعة كبرى مكشوفة يلتقي فيها طلاب العلم. يقرأون على الأساتذة، ويتذاكرون المسائل الفقهيّة،

(١) أهم المدارس التي عاشت ما بين ١٨٠٠ - ١٩١٨. هي: مدرسة الصدر، مدرسة المعتمد، مدرسة القوام ١٨٨١، مدرسة القزويني ١٩٠٦، مدرسة البادكوبي ١٩٠٧، مدرسة الهندي ١٩١٠، مدرسة الخليلي الكبيرة ١٨٩٨، مدرسة اليزدي ١٩٠٩، مدرسة الآخوند الوسطى ١٩١١، مدرسة البخاري ١٩١١.. (ماضي النجف وحاضرها: ٢/ ١١٢، ثورة النجف: ٣٧ - ٣٨).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

واللغويّة والفلسفية، ومناهج التعليم فيها متشابهة، وهي قسمان: طريقة القراءة السطحية أو «السطوح» وطريقة الحضور «الخارجي». وطالب الاجتهاد يحضر الدروس الخارجيَّة المتشعبة الألوان. ويواظب حتى يتمكن من استنباط الفروع من الأصول، فيجيزه الأستاذ ويصبح مجتهداً[١].

وإذا تتبعّنا كتب التدريس لبانت كثرتها، وضعوها للدِّفاع عن الدين، وشرح العقيدة، ولأسباب تزهديَّة فيها خوف المعاد، وأمل دخول الجنَّة، فضلاً عن حاجتهم إلى كتب توضع بين أيدي الطلاّب[٢]. وتقسم إلى قسمين: كتب مراجع للاطلاع، وتوسيع الآفاق المعرفيَّة، وأُخر مقرَّرة. ففي الفقه والأصول يُعتمَد عادة كتاب المجتهد الأكبر في زمنه، مع كتابي: المعالم، واللمعة الدمشقيَّة، ويدرس الطالب النحو والصرف والمنطق والمعاني... في أمهات الكتب المعروفة.

«وزبدةُ حِقَب» الجامعة النجفيّة فلسفة الفقه. حتى قال (ريثر) الألماني: «إن المدارس الفقهيَّة، والتفكير الديني في الإسلام، يمثلان الفلسفة العربيَّة، أكثر مما يمثلها جمهور الفلاسفة، أتباع أرسطو، كالفارابي وابن سينا وابن رشد...»[٣] وعنى (ريثر) بكلامه النجف، لأن الأزهر أبعد الفلسفة وعلم الكلام عن حلقاته استجابة لفتوى

(١) مجلة لغة العرب عام ١٩١٢ (٤٤٤)، راجع كوركيس عواد. معجم المؤلفين العراقيين ٣ أجزاء.
(٢) المرجع نفسه: ٢/ ٤٤٠.
(٣) مجلة البيان النجفيَّة سنة ٦، عدد ٤٦.

الشافعي «أن يلقى الله العبدُ بكل ذنب ما خلا الشرك، خيرٌ له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام»[١]، وأكّد المراغي، أحد مشايخ الأزهر رواية التحريم قال: «منذ أربعين سنة قرأ لنا أحد شيوخنا كتاب «الهداية» في الفلسفة، على أن نكتم الأمر لئلا يتّهمه الناس بالزيغ والزندقة[٢]، ولمَّا أدخل الأزهر الفلسفة حديثاً إلى علومه لم يعتمد (فلسفة الفقه) فانتقده سيد قطب قائلاً: وبدل أن ينهض الأزهر بهذه الرسالة «فلسفة الفقه» راح يدرّس في كليَّة أصول الدين، ما يسمَّى خطأ بالفلسفة الإسلاميَّة من كتب ابن سينا وابن رشد، هذه الانعكاسات للفلسفة الإغريقيَّة التي لا صلة لها بحقيقة الفكرة الإسلامية الكليّة...»[٣].

ومن خصائص جامعة النجف التحرُّر الفكري: لقد نهجت دراساتها منهج المناقشة، والجدال، وعرض المشكلات بتعمُّق. فيطلع الطالب على آراء العلماء ليقارن بينها فيما بعد، ويحلِّلها ويختار ما وافق ضميره...

إن جامعة النجف، لم تكن وقوفيَّة، بل كانت سبّاقة إلى الركائز العلميَّة، وتحديث الأساليب. مما جعل «برنارد شو» يطالب بهدم جامعات أوروبة، ذات النّظام التسلّطي[٤]، حيث يفرض الأستاذ رأيه على طلاّبه، ويوقفهم على وجهة نظر واحدة، في محاضراته، بدل

(١) حديث الجامعة النجفيّة: ٦٨.
(٢) الجندي، أنور، المراغي: ٧٩.
(٣) العدالة الاجتماعية في الإسلام: ٢٠.
(٤) حديث برنارد شو. منشور في مجلة البيان النجفيَّة السنة السادسة عدد ٤٦.

توزيع المعرفة عن طريق الجدل والمناظرات التي تنمِّي الأفكار الجريئة. إن منهج الحوار الذي يبغيه «برنارد شو» ركيزة نجفيَّة منذ القديم، حققه الدرس الخارجي (المرحلة النهائية) بالمذاكرة والمناقشة، والمشاحنات الفكريَّة بين (الكل التعليمي) أساتذة وطلاباً.

ومن مُبدعاتها فقه الحديث، وشعّبه المسلمون إلى: رواية ودراية. الرواية عن النبي وآل البيت والأتباع... والدراية علم الرجال في صدقهم وكذبهم وتدليسهم، وتقواهم... ومن الدراية النظر في ملابسات المضمون شكلاً ومعنى. وبذلك ولد فقه الحديث والرواية. ولعل الأوروبيين قبسوا مقوِّمات هذا العلم وطبقوها في دراسة رواية التاريخ. ويفاخرون اليوم بأنهم أبدعوا علم «مصطلح التاريخ»[١].

واهٍ هذا الادّعاء الإبداعي، لأن جامعة النجف سبقتهم إليه بأمد طويل في بحث مصطلح حديثها.

(١) رستم، أسد، مصطلح التاريخ، ٥ - ٦.

التفرّغ الجامعي

ومن تفردها «قانون التفرُّغ الجامعي» يصدفك في (مثال) بسيط ردَّده الأساتذة قبل الطلاّب «لو كُلِّفت بصلة،لما حصَّلتُ مسألة». .

هكذا نهجت جامعة النجف «التفرُّغ» أيُّ إنسان يُكلّفُ جَنْي حاجة مهما كانت طفيفة، يصعب عليه تحصيل المسائل العلميَّة. ومنذ بضع سنوات، وبعد إضرابات طويلة أقرَّ لبنان مشروع التفرغ الجامعي، وراح يفاخر بأنه حقَّق قفزة حضارية بعمله هذا. بعدما اقتنع المسؤولون بأن التفرغ يُسهم في رفع المستوى الجامعي، ويُغني الأبحاث الأكاديميَّة، لأنه يضمن الوقت للأستاذ، ويؤمن الاحتكاك الدائم بين الطالب والمعلم، أو بين أعضاء الهيئة الجامعيَّة التي تستنير بعرض المشاكل، وكشف غوامضها. هذا التفرغ هو أساس التحصيل في جامعة النجف، لأن الأستاذ والطالب يعيشان حياة التفرُّغ في سبيل العلم. الكل يبحث، ويتقصَّى ويكتشف، ويعطي ويأخذ. . وقد ينام الجميع في بناء واحد، ويصلّون معاً ويأكلون سويَّة، فيكتسب الطالب من أخلاق معلمه وسلوكه وأفكاره. . .

أما التطور الفكري فقد آمن مشايخ النجف بأن الدين يجب أن يلائم مستوى البشر في عصورهم وأزمنتهم، وأن يضمن ما يفتقرون إليه من أمر معاشهم، ويرفع الخلاف المنبعث عادة من طبيعة الإنسان، ونفسية المجتمع، ولما كان التطور في الحياة مرجّحاً، واتساع المدارك مما يقتضيه قانون النشوء والارتقاء، كان ضرورياً أن يفصِّل العلماء في المسائل الوافدة مع الحضارة الغربيَّة، وأن يحدِّدوا مواقف الإسلام منها. فغزرت الأبحاث الدينيّة، وهزّت من حين إلى آخر المجتمع الإسلامي، وحاولت في العصر الحديث أن تنتشله من نهضة مقلِّده إلى نهوض أصيل. وتصدَّر الفقه بفلسفته الأبحاث الدينيّة في النجف لأنه علم يتّسع «لعمليات استنباط كثيرة بقدر الوقائع والأحداث التي تزخر بها حياة الإنسان»[١].

وأبى علماء النجف أن يتحجَّر دين الإسلام في عصر عند حدود العادات الموروثة غير الدينيَّة تلك العادات التي ألفها المجتمع، وكان يرى الإقلاعَ عنها جريمة، فكيف يتخلَّى عن تقاليد أشربت روحاً دينيَّة؟ وتمسكت بها العامَّة حتى رُسمت عقائد رغم الأضرار التي تنجم عنها.

وبعد محاربة العادات التي غدت ديناً «كهانيّاً» انطلق علماء النجف إلى المسائل «المتجدِّدة» أو «الحادثة» المرتبطة بالحضارة العصرية من أفكار، ونُظُم، وأزياء، وتجدُّد الآلة: مثل المدارس الحديثة، والوظائف، وقراءة الجرائد والمجلات، وتعلُّم اللغات الأوروبيَّة

(١) الصدر، محمد باقر. المعالم الجديدة للأصول: ٨.

واستعمال القبَّعة، والسفور وحلق اللحية، واقتناء الحاكي، والمذياع والتلفزيون، والصعود إلى سطح القمر.. وإذا عرفنا أن «أيسر الأمور المستجدَّة كانت تثير لدداً قوياً بين المسلمين»[١]، أدركنا أهميَّة الاجتهاد في «التحكيم» لقضايا ناشئة تمسُّ الحاجة إليها، ولاسيما بعد أن قام حاجز من الجمود بين كل جديد، وعامة المسلمين. فانبرى مجتهد النجف لوضع الأمور في مواضعها. لقد حرَّمت جماعة استخدام القطار، ورفضت ركوبه، لأنه اختراع غربي من صنع الأعداء. لكن فتاوى المجتهدين التي أباحت استخدامه، طمأنت الناس، وطويت قصة تحريمه، هذه القضايا وأمثالها جهد علماء النجف إلى التعمُّق في مضمونها، وجلاء حقيقتها، والمقارنة بين منافعها ومضارّها، وما يترتب عليها من أحكام شرعيَّة، طامحين إلى بلورة قانون اجتماعي يرعاه الضمير البشري، يرشد الإنسان إلى ما فيه منفعة الفرد والجماعة واسمه «الحلال» أو «المباح». ويزجر عن الحرام أو الشر وهو ما يؤذي مصالح الآخرين. أو ما يسيء إلى صحة الفرد ذاته.

هكذا كانت جامعة النجف الواجهة الثقافية، خرَّجت أفواجاً من العلماء والشعراء والكتاب، لقد أمَّها الطلاّب من العراق ومن الأقطار الإسلاميّة: لبنان، وسورية، وشبه الجزيرة العربيَّة، والباكستان والتيبت، وأفغانستان، وإيران والهند... فضمَّت مزيجاً من قوميات شتى، ولم تميّز بين الأغنياء والفقراء، مما أوجد طبقة مثقفين من عامّة الشعب

(١) الألوسي، أبو الثناء. نشوة الشمول: ٤٢.

تجاوزت مدَّ الأسر الغنيَّة، وكانت أول من حطّم أرستوقراطيّة التعليم الجامعي.

ولأساتذة النجف أثر بيّنٌ في بعث الفكر الإسلامي من الجمود، فخلقوا النشاط الديني، ونمّوا الحركة الأدبيّة، وتبوَّؤوا مكانة مرموقة على صعيد الاجتماع والدين والشعر، لا في العراق وحده، بل على صعيد الشرق العربي، فالشيخ الأكبر جعفر كاشف الغطاء (١٧٤٣ - ١٨١٣)، كان مرجعاً للشيعة في مختلف أقطارهم، وهو شاعر وثائر، وفقيه أصولي تصدَّى، للإخباريين الذين يلتزمون بحرفيّة النصوص، ويميلون إلى الجمود بدل التحرر. ومثله السيد محمد مهدي بن مرتضى الطباطبائي الشهير بـ (بحر العلوم) وهذا اللقب صفة علميَّة لاتساع علمه. وتوفي عام ١٢٢١هـ. والشيخ مرتضى الأنصاري (١٧٩٩ - ١٧٦٤) صاحب المكاسب، ومحمد حسن صاحب الجواهر. والمجدّد السيد حسن الشيرازي، وعلماء من آل القزويني والطباطبائي وشُبَّر...[١].

أما الخرّيجون الذين نالوا الإجازات الدينيَّة في رواية الحديث والفقه، والشعر والنحو والصرف... فجاوز عددهم عشرة آلاف في القرن التاسع عشر[٢]. هذه الغزارة تدل على أن سكان النجف كانوا في معظمهم يقرأون ويكتبون في حين كانت نسبة المتعلمين في العراق عامة

(١) راجع أعيان الشيعة للأمين، والذريعة لآغا بزرك الطهراني.
(٢) شمس الدين. حديث الجامعة النجفية: ٣٢.

في منتصف القرن التاسع عشر نصف بالمئة[١]. وانطلاقاً من حسِّهم الإسلامي انتشروا في البلاد لتعليم الناس أمور دينهم، والقراءة والكتابة أحياناً. وتولّوا القضاء الشرعي بتفويض من الشعب، بعيداً عن ظلم محاكم الدولة وجورها وقسمٌ آخر من الخرِّيجين، صاروا أساتذة المستقبل، وتصدروا الحركة الأدبيَّة في العراق، ووزَّعوا نشاطاتهم على إقامة الأندية، ونشر المقالات، وإصدار الصحف[٢]. وحمل الفكر الديني والسياسي والاجتماعي. حتى غدت أندية النجف وحلقاتها الأدبيَّة، محجَّةً لأدباء العراق كلِّه يستلفون منها ما يغذي أفكارهم، ويفتح أمامهم مجالات واسعة في النَّظم ولا أُغالي إذا صرَّحت بأن الشعر الذي نظمه خريجو النجف يؤلّف ثلثي النتاج العراقي، حتى قيل الشعر العراقي فراتي - نجفي. وقد توزّعت موضوعاته بين التقليد والتجديد، ونادت هذه الطبقة، بتحرر العراق والدول الإسلاميَّة من ربقة الاستعمار التركي قديماً، والأوروبي - الأميركي حديثاً، ولما كانت السلطات تلاحق المتحررين، تحصَّن هؤلاء وراء الشعر الديني الذي يمدح الرسول الكريم، وآل البيت عليهم السلام، وينادي الإمام المهدي المنتظر للنهوض وإقامة العدل، ودفع نقمة المسؤولين. وكان النداء مبطّناً يحمل في طياته ثورة عارمة ضد المستعمرين الأغراب الذين احتقروا العنصر

(١) longrigg, -(steven). Four Centuries of Modern Iraq: 268.

(٢) أمثال هبة الدين الشهرستاني، صاحب مجلة العلم النجفية ١٩١٠، . أول مجلة في النجف.

العربي، «وذادوا الأسود عن الماء الفرات»، واستأثروا بكل المعطيات العراقية[١].

هذا العرض الموجز أبان أن جامعة النجف أَلَقٌ وسَبق وتفرّد، ألقٌ في العطاء، وسبق في التحديث، وتفرّدٌ في الإبداع.

(١) راجع دواوين الشعراء: حيدر الحلي، موسى الطالقاني، جعفر الحلي، محمد القزويني، جابر الكاظمي، عبد الغفّار الأخرس.

الفصل الخامس

المرجعيَّة

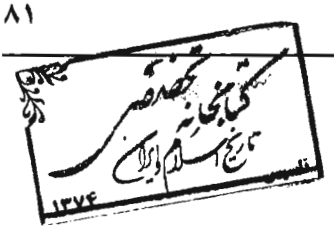

المرجعيَّة

المرجعيَّة وعدٌ إلهي يوجِّه مسيرة الإنسان، ويحفظ تواصل العهد بين السماء والأرض. فالمرجعيَّة خط التبليغ، لقطع الأعذار ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[1]. يتلقّى الإنسانُ التعاليم الإلهية - وسيلة المرجعيَّة - حتى لا يضلّ وينحرف، وتتم بوحي أو اجتهاد: فهي نبويَّة وإماميَّة وعلمائيَّة.

المرجعيَّة النبويَّة: قادها مئة وأربعة وعشرون ألف نبي، أرسلهم الله تباعاً إلى النَّاس، يعلّمونهم التوحيد والشرائع الإلهيّة، من عبادات ومعاملات قاطعين الحجَّة على الجماعات التي تهوى الضّلالة. استمرت المرجعيّة النبويَّة منذ آدم حتى وفاة خاتم الرسل النبي محمد ﷺ عام ١١هـ/ ٦٣٣م.

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

المرجعيَّة الإماميَّة (الولاية)

قادها الأئمة المعصومون الاثنا عشر، من الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إلى الإمام القائم المهدي محمد بن الحسن (عج).

انطلقت الإمامة تبليغاً سماوياً يوم بيعةِ الغدير. وبدأت مسيرتها مع وفاة النبي صلى الله عليه وآله. فالإمام علي عليه السلام كان إماماً معصوماً له الولاية على الناس، وهو حُجَةُ الله على خلقه، ومرجعٌ للشريعة.

النبوَّة: منْحة إلهية لا يلغيها عدم إقرار البشر، وإنكارهم، إن اعترفوا بها أفلحوا وإن أنكروها هلكوا. رفض قوم نوح نبوّته ومثلهم قوم هود وصالح... لكنّ نوحاً وهوداً وصالحاً ظلّوا أنبياء.

إن انقطعت النبوَّة عاشت بالإمامة، وإن رفض الناس إمامة أهل البيت عليهم السلام وأبعدوهم عن خلافة الرسول الزمنيَّة، فإمامتهم المعصومة منحة إلهيَّة لا يُلغيها الناس. لم تكن السلطة الزمنيّة هدف النبوّات، إن معظم الأنبياء ما تولوا السلطة الزمنيّة، إنما كانوا رُسلاً يدعون الملوك والحكّام والإنسان المطلق إلى الإيمان بالله وعبادته... واستمرت

الإمامة تحرس الدين، ترسيخاً لتعاليم الإسلام وتجذيرها، حتى تاريخ الغيبة الكبرى عام ٣٢٩هـ[١].

(١) المفيد. الارشاد: ٢/ ٣٦٥.

المرجعيَّة العلمائية

حدَّدها الإمام الصادق عليه السلام : بقوله: «انظروا إلى من كان منكم قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فارضوا به حكماً، فإني جعلته حاكماً، فإذا حكم بحكم فمن لم يقبله منه، فإنما بحكم الله استخفّ، وعلينا راد، وهو رادٌّ على الله، وهو على حدِّ الشرك»[1] ثم أكّد الإمام المهدي (عج) المرجعيَّة في حدود ولاية الفقيه، في وصيته لنائبه (علي السّمري).

بدأت المرجعية العلمائية في بغداد وقم. عندما ظهر علماء - فقهاء تولوا المرجعية، وعطفوا على تراث آل البيت عليهم السلام يجمعونه، ويحفظونه من الضَّياع. جمعوا أحاديث آل البيت عليهم السلام ، ونظموا فقه الشريعة في الكتب الأربعة:

١ - أصول الكافي وفروعه. وضعه أبو جعفر محمد بن يعقوب الكُليني (المتوفى عام ٣٢٩ هـ).

٢ - من لا يحضره الفقيه. وضعه أبو جعفر محمد بن علي بن

(١) الصدوق، ابن بابويه القمي: أمالي الصدوق: ١٢٠.

الحسين ابن بابويه القمي، المعروف بـ (الصدوق) (المتوفى عام ٣٨١هـ)[١].

٣ - تهذيب الأحكام، صنّفه أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (المتوفى عام ٤٦٠/ ١٠٦٧م).

٤ - الاستبصار فيما اختلف من الأخبار، للطوسي أيضاً.

هذه المرجعيَّة تعرَّضت للاضطهاد في بغداد، كان شيخ الطائفة محمد بن الحسن بن علي الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠هـ)، قدم بغداد من خراسان سنة ٤٠٨هـ. وعمَّق دراساته على الشيخ المفيد (المتوفى ٤١٣هـ) ثم لازم السيد المرتضى (المتوفى ٤٣٦هـ). ورفعته ثقافته إلى مرتبة وحيد العصر، فجعل له السلطان العباسي، القادر بالله، أحمد، كرسي الكلام والإفادة. لكن أعداءه لفّقوا وشايات كثيرة رفعوها إلى القادر فاستدعاه وسأله عن التُّهم، فبرّأ نفسه منها، وعاد إلى عمله، فلجأ الخصوم إلى سواد الناس (الهمج الرُّعاع)، فهاجموه، وأحرقوا داره وكتبه[٢]، رَحل إلى النجف الأشرف عام ٤٤٨هـ مع طلاّبه ومريديه، وأسَّسَ الحوزة العلميَّة، وبلغ عدد تلامذته أكثر من ٣٠٠ مجتهد. أحدثوا ثورة علميَّة حقيقيَّة، لقد تفرَّق معظم هؤلاء واستقروا في حواضر العالمين العربي والإسلامي.

هكذا نشأت في جوار مرقد الإمام علي عليه السلام جامعة من طراز

(١) الخوانساري، روضات الجنات: ٦/ ١٣٢.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية ٢/ ٩٧، روضات الجنات: ٦/ ٢٢٦.

خاص ارتقت بالعلم إلى المعنى الذي قال عنه سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[1].

أشرقت أنوار العلم من النجف، وتوزّعت في مشارق الأرض ومغاربها، واستمرت حركة المرجعيَّة في النجف منيعة بالعلوم، عزيزة بالتفاف الجماهير حولها، قويَّة باستجابة النّاس الاختيارية لأحكامها وفتاويها. وتمثَّل عطاء النجف بتصدير العلوم إلى الأمصار عن طريق العلماء والأسفار والثورات.. يصعب حصر العلماء ومؤلفاتهم. لقد ظهر مجتهدون، هم مجددون في الإسلام وجهوا الاجتهاد للعناية بالشؤون الدينية والاجتماعية. وقالوا: إن نأي الاجتهاد عن الشؤون الاجتماعية يؤدي إلى وقوفيَّة المجتمع. مرَّت المرجعيَّة العلمائيَّة بمراحل أربع حدَّدها الشهيد الثالث[2]:

(١) سورة العلق، الآيتان: ٤ و ٥.
(٢) الصدر، محمد باقر. المحنة: ٤١ - ٤٥.

المرحلة الأولى: علاقة فرديَّة بين الناس والمجتهدين

عندما تعرض للفرد قضيّة لا يعرف حكمها الشرعي، يستفتي المجتهد الذي يرشده إلى الأحكام الصحيحة، ويعرِّفه أمور دينه.

استمرت هذه المرحلة ابتداءً من عصر نوّاب الإمام، وحتى عصر العلاّمة الحسن بن يوسف بن المطهر الحلي (المتوفى ٧٢٦هـ).

المرحلة الثانية: تشكيل جهاز المرجعيَّة

بدأ تشكيل جهاز المرجعيَّة مع الشهيد الأول، محمد بن مكي الجزيني كان يرسل وكلاءه من العلماء إلى الأقطار الإسلامية ليشكلوا حلقة وصل بينه وبين النّاس، عيَّن وكلاء له في سوريّة ولبنان، كانوا يجمعون الحقوق: الخمس والزكاة: مما ألَّف قدرة دينيَّة مركزيَّة ومتَّصلة. هذه التحركات أخافت السلطات فدبَّرت مقتل الشهيد الأول (٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م).

المرحلة الثالثة: تمركز المرجعيَّة

أحدث الشيخ جعفر كاشف الغطاء (١١٥٦ - ١٢٢٧هـ) (١٧٤٣ - ١٨١٣م)، نقلةً في المرجعيَّة، إذ قوَّى دور المؤسسة، وعمل على تمركزها، وغدت تغطّي عالم التشيُّع بأكمله (العراق، إيران، بلاد الشام..). ولد في النَّجف، ودرس الفقه على السيد مهدي بحر العلوم (م١٧٩٧م). وكتب «كاشف الغطاء عن خفيَّات مبهمات الشريعة الغرّاء» اشتهر بهذ الكتاب، وأصبح علماً على الأسرة وسُمِّي بالشيخ الأكبر.

اشتهر بالاستنباط الفقهي، حاربَ دعاوى الإخباريين. ودافع عن منهج الأصوليين. شارك في ردّ غارات الوهابيين على النجف[١]. انصرف إلى هموم الطائفة يعالجها، فوجدها تكمن في الجهل والفقر والفرقة. التزم سبيل العلم، فوزّع العلماء على البلاد، أما الفقر فقال باستيفاء الحقوق الشرعيَّة، ولو بالقوَّة، لصرفها إلى مستحقِّيها، ومعالجة قضايا الطائفة، وتعدّت معالجاته الأفراد إلى الحكام، فطلب إليه «فتح علي شاه القاجاري» أن يُصدر فتوى للشعب الإيراني بدفع الحقوق لتقوية الجيش ومواجهة أعداء الإسلام. . .

وبادر إلى تشكيل قوَّة الشيعة بوحدتهم، انطلق من صلاة الجماعة، جاء في مستدركات الوسائل: «أبطأ الشيخ في بعض الأيام عن صلاة الظهر فراح الناس يصلّون فرادى، فلما دخل المسجد، جعل يوبخهم ويقول: أما فيكم من تصلّون خلفه؟ ثم رأى بعض التجار الأخيار يصلّي فقال: دعونا نأتمُّ بهذا العبد الصالح، فائتم به هو والجماعة». وظهرت الوحدةُ فاعلة في ردِّ غارات الوهابيين، إذ شكّل جيش مقاومة في النجف، وكانت داره مركزاً لتوزيع الأسلحة والذّخائر، ومقرّاً للعمليات، وأشرف على ترتيب المقاتلين وتوزيعهم على سور المدينة. فنجحوا في ردِّ غارات الوهابيين المتتابعة على النجف، انكفأ هؤلاء، وقصدوا كربلاء، فاحتلوها، ونهبوها، وقتلوا أهلها، وهم أكثر من أهل النجف.

(١) الطهراني، آغا بزرك، الكرام البررة: ١/٢٤٨، الأمين. أعيان الشيعة. ١٥/٣٠٦ - ٣٣٠، عوّاد كوركيس. معجم المؤلفين العراقيين ١/٢٥١.

المرحلة الرابعة: قيادة الأمَّة

بعدما تطوّرت المرجعيَّة وتمركزت، وقوي نفوذها، بدأت تمارس دورها في قيادة الأمّة في علاقاتها الداخليَّة والخارجيّة، والسعي لإقامة دولة ولاية الفقيه. بدأت هذه المرحلة مع نهاية الحرب العالميّة الأولى، وذهاب الحكم التركي.

انطلاقاً من العقيدة الشيعيَّة، الرافضة للحاكم الظالم، تبنَّت المرجعيَّة مواجهة الانحراف والظلم والاستبداد.. وترجمت النظريَّة عملاً كلّما أطلّت هذه الأقانيم المعادية للوجود الإنساني.. قادت المرجعيَّة بأجهزتها، وقاعدتها الشعبيَّة، حركات التصدِّي لقضايا مصيريَّة:

أ - أصدرت فتوى تحريم التدخين عام ١٨٩١م لمنع احتكار بريطانية لصناعة التبغ والتنباك والاتجار به.

ب - شارك علماء النجف، بفتوى الجهاد، في معركة الشعيبة ضد الاحتلال الانكليزي للعراق عام ١٩١٦م.

ج - احتضان ثورة النجف عام ١٩٢٠م.

د - مناهضة المد الشيوعي، في عهد عبد الكريم قاسم.

هـ - فتاوى الخميني ضد تنازلات الشاه التي قدّمها للإدارة الأميركيّة عام ١٩٦٣م. ثم فتاوى إسقاط الشاه، وتبديل الحكم، وإقامة الجمهورية الإسلامية بقيادة ولي الفقيه.

و - إعلان الخوئي عن تشكيل إدارة للمحافظات العراقية المحرّرة، مؤلّفة من تسعة فقهاء في ٦ آذار ١٩٩١م، وأفتى بوجوب طاعتها...

ز - الحفاظ على الحريات، ترفع المرجعيّة شعارات: لا إكراه في الدين، لا إكراه في العقيدة، لا إكراه في التقليد...

الموقع الاستقلالي للنّجف

منذ منتصف القرن الخامس الهجري وحتى أيامنا حقّقت النجف استقلاليَّة دينيّة وعلميَّة وسياسيَّة وماليَّة وقضائيَّة.. ورفضت بإصرار وعناد أشكال التسلّط الخارجي الصادرة عن حكام العالم (الإسلامي والعربي والغربي). وحرصت على الخضوع للشرع والكفاءة العلمية والروحية التي يكتسبها العاملون بالعِبادة والتحصيل.

قرأت النجف بتأمل القول المأثور: «إذا رأيتم الملوك على أبواب العلماء، فنعم الملوك ونعم العلماء، وإذا رأيتم العلماء على أبواب الملوك، فبئس الملوك، وبئس العلماء». عمَّمت النجف مضمون الحديث ونقلت مصداقيته من الأفراد إلى المؤسسات - المدينية، ذات الصفة المعنويَّة النجف تمثل السلطة العلمائيَّة الشيعية، لذلك أبت أن تخضع لعواصم العالم، ورفضت أن تقف على أبواب الملوك والامبراطوريات.. بل وقف الملوك على أبوابها، للتبرُّك بمرقد الإمام علي عليه السلام، ولأخذ الفتاوى الاجتهاديَّة في قضايا الأمّة الصعبة.

رفضت النجف باستمرار الخضوع للسلاطين العتاة، وتمركزت فيها

روح ديمقراطيَّة، ناشئة عن حريّة الاجتهاد، هذه الروح الديمقراطيَّة مورست بعفويّة متأصّلة، وغدت مع الزمن عرفاً دستورياً يشرّع في الوقت نفسه للأفراد والدولة، إذ ليس من الواجب أن تأخذ الحكومة الإسلامية برأي المجتهد الواحد، بل عليها استنساب الرأي الاجتهادي الذي يوافق مصلحة الأمَّة العامّة، مثلما يستنسب طالب العلم النجفي الأستاذ الذي يريد، فينتقيه بلا سأم أو حرج ويكوِّن شخصيته الفقهية المستقلة عن شخصية أستاذه فكرياً أو فقهياً ومثلما يختار الفرد الشيعي مرجعه في التقليد، ولا يَعْدِل عنه بالقوَّة، بل يَعْدُل عندما يثبَّت من أعلميَّة المعدول إليه، أي عندما يقع «الاطمئنان النفسي». إذ لا يصح الإلزام في التقليد ابتداء، ولا يصح إلزام المقلِّد بالعدول إلى مقلَّد معيَّن، فتضيعُ أعماله العباديَّة. هل يقبل المرء أن يصلي ويصوم ويحج وتذهب عباداته هذه عبثاً؟!.

الاستقلالية الماليَّة

تولَّى المراجع المسؤوليَّة: الدينيَّة والماليَّة، فالحقوق (الخمس والزكاة والصدقات) يقبضها المرجع، أو تقبض بتفويض منه، ويأمر بصرفها على الوجه الشرعي، حرصاً على (المركزيَّة الماليَّة). وألِّفت بيوت المراجع مقرّاً للخزينة (بيت مال المسلمين). وتحلَّت هذه المسؤوليَّة الماليَّة بأمانة مثاليَّة. للحفاظ على (حقوق الله) المفروضة.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[1].

الأموال - الحقوق توزَّع على الفقراء الأتقياء بعيداً عن ضرائب الدولة، وأعشارها، وبذخها وصرفها إرضاء للأهواء والميول. توافر للمرجعيَّة على مرِّ العصور مجتهدون حقّقوا المثاليَّة في صون الأمانة. لم يسكن أولئك المراجع القصور، ولم يقتنوا أرعال الخيل، أو أرتال السيارات، ولم يورِّثوها للأولاد والأسباط والأصهار.. بل عاشوا الكفاف، وتضوَّر أولادهم جوعاً. والأموال مكنوزة في خزائنهم، لا

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

يمدون أيديهم إلى درهم منها، لأنها ليست لهم، بل أنفوا أن يأكلوا منها لأنّها صدقات وكفّارات ذنوب. . . .

قال داود النبي للقمان الحكيم: هل ترى من عيب في نبي الله داود؟.

أجاب: لا، إلاّ خُلَّة واحدة، إنه يأكل من الصدقات.

فآل داود على نفسه ألاَّ يأكل إلا من جني يديه، فألان الله له الحديد. وعمل الدروع - الداوديَّة وباعها وأكل بأثمانها وتصدَّق. .

عبَّر الشيخ مرتضى بن محمد الأنصاري (١٧٩٩ - ١٨٦٤) عن هذه الروح الأمانيَّة في تصرفاته، وإنفاقه، كان الأنصاري عالماً زاهداً، متقشفاً يميز الحلال من الحرام، يؤدّي الواجبات والمستحبّات، وينتهي عن المحرمات والمكروهات. حاول أن يقلِّد سيرة الإمام علي عليه السلام، فأبى أن يصرف على نفسه أو عياله درهماً من أموال المسلمين.

- وكان أميناً عليها - مع أنه كان في ضائقة ماليّة. وكان مرجع الأمَّة في النجف. كما أنه رفض أن يمدَّ أخاه بمبلغ زيادة عن سهمه الذي استحقه، وردّ للمرَّة الثانية وساطة والدته في الأمر[1]. ثم أقام الحجة على زوجه عندما طالبته أن يقتطع مبلغاً زهيداً من الحقوق التي يوزعها على الناس، لتصرفها على أولاده الشُّعَّثُ. لكنه أبى، ألحَّت فرفض، توسَّطت لدى أحد العلماء من أصدقائه المخلصين، أغضبته

(١) الأنصاري، المكاسب: ١/ ١٢٩.

الوساطة، عاد إلى البيت، خلع ثوبه وقد امتلأ غباراً وعرقاً... وقال لزوجه اغسليه، واحتفظي بماء الغُسالة، واحضريها إلي فلما فعلت أخذ كأساً وملأها من ماء الغُسالة، وقال لها: اشربي هذا الماء. قالت: كيف أشرب هذا الماء القذر؟ أجابها: أنتِ تطلبين أن تأكلي ما هو أشد دَنَساً من هذا: الصدقات، وكفّارات الذنوب وحقوق الناس. اقتنعت المرأة وكفّت عن النظر إلى ما في يد زوجها من حقوق شرعية.

وللأنصاري موقف آخر يبيّن خط المرجعيَّة في الاستقلاليّة الماليَّة والسياسيَّة، عرض عليه قنصل بريطانيا في العراق أن يأخذ أموالاً من المصرف الانكليزي، وضعتها امرأة هنديَّة لتصرف في كربلاء والنجف، بإشراف المجتهدين، وشرط القنصل أن يأخذ توقيع الشيخ الأنصاري على إيصالات السحب. فأبى الشيخ الأموال، ورفض التعامل مع الانكليز[1].

(١) الأمين، أعيان الشيعة. ٤٨/ ٤٥.

الاستقلاليَّة القضائية

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1]. التزمت النجف ومجتهدوها ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وأنفت من أحكام الدساتير الوضعيَّة التي شرَّعها البشر لأنها تقبل الظلم. من هنا كان أهل النجف يفضّون نزاعاتهم لدى المراجع والمجتهدين، ويقبلون الأحكام التي يصدرونها. ولم يلجأ السكان إلى محاكم الدولة العثمانية. حتى شكا قُضاة النجف المدنيين، أن السنوات تمرّ ولا ينظرون في دعوى واحدة...

كانت سلطة المرجع أشد نفاذاً من سلطة القضاء المدني والعسكري لدى الشيعة. روى السيد محسن الأمين (المتوفى عام ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م). قصَّة نزاع إرثي تعقَّدت، كانت (الهرمل بلدة لبنانية) مسرحها. وقعت خلال الحرب العالميّة الأولى، وعجزت السلطات القضائية والعسكريّة والإداريَّة عن حلّها. فتكلّف السيد الأمين مشقّة السفر من شقرا إلى الهرمل، مع صعوبة المواصلات إبَّان الحرب.

خلال ساعات درس ملفّ القضيَّة، وأصدر الحكم العادل، فرضي

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

به الطرفان. . . وأبدى المسؤولون استغراباً لنفوذ السيد الديني ولذكائه وحكمته، ومقدرته على إنهاء النزاع[١].

هذه الاستقلاليات المحميَّة بعفويَّة شعبيَّة، جعلت السلطات المحليَّة والاستعماريَّة يخشون دور المرجعيَّة في تقويض مشاريعهم على مختلف الأصعدة. فبدأ التخطيط لضرب المرجعيَّة وصولاً إلى إضعافها واستيعابها والتدخل في شؤونها، محواً لتلك الاستقلالية ذات الفرادة، المتأتية من منحة سماويَّة، كانت ثواباً لالتزام التعاليم الرِّساليَّة.

(١) سيرة السيد محسن الأمين: ١٢٨ - ١٣٠.

الاستراتيجيّة العدائية

أعلن أعداء المرجعيَّة حرباً متعدِّدة المحاور لمحاصرتها وتبديل المهمات التي ناضلت من أجلها وأهمها:

١ - صون الإسلام، واستمراريته. بحفظ العلوم وتطويرها، ونقلها عبر الأجيال من خلال عشرات الآلاف من المصنّفات التي أعطاها علماء الشيعة وهم ممّن تخرَّجوا في النجف أو قرؤوا على مشايخها أو زاروها... يكشف ذلك كتاب «الذريعة إلى تصانيف الشيعة» الذي وضعه آقا بزرك الطهراني، وذكر فيه قرابة خمسين ألف كتاب».

٢ - تخريج العلماء، وإعداد المبلِّغين، استجابة لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

٣ - دعم تمركز المرجعيّة عن طريق ربط القاعدة الشعبيَّة بالقيادة.

٤ - مُواجهة الظلم وإعلان الجهاد ضد الاستعمار.

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

أساليب التنفيذ المعتمدة ضد المرجعية:

أولاً: إن الحرب العدائيّة بدأت سلطويَّة، بفرض قوانين الدولة الوضعيَّة، على القوانين الإلهيَّة التي تعمل بها المرجعيَّة، لكن الاستقلاليَّة الحوزويَّة دعمت دستورها السماوي، وأبقته فوق الأنظمة البشريَّة. وعجزت الدولة عن فرض مراقبتها أو إدخال مناهجها على النظام المدرسي الحوزوي.

وعندما فرضت حظراً وظيفياً على خريجي النجف، لاقى هؤلاء قبولاً في أوساط الشعب استغناء عن الوظائف الرسميَّة.

ثانياً - الغزو الثقافي والفكري للنجف: الكلمة تقاومها الكلمة، إن الثقافة المتجذّرة، لوت جيد السيف، فانحنى في يد الأعداء... عمدوا إلى غزو ثقافي مضاد، فأرسلوا جماعات حزبيَّة (شيوعيَّة وبعثيَّة) تتظاهر بطلب العلم الديني، وتبثُّ الفكر الإلحادي، ودعاوى العصرنة، بين طلاّب العلوم. وليضمنوا نجاح هذه العناصر أمدُّوها بالنفوذ والأموال.. أطلَّ الغزو الشيوعي أوّلاً، وتمتّع بالعنجهيَّة في عهد عبدالكريم قاسم الذي تسلّم السلطة عام ١٩٥٨م. ثم ما لبث أن تحوَّل إلى عميل للمخابرات البريطانيَّة.

نجح الشيوعيون في اكتساب أنصار لهم في صفوف النجفيين، ومنهم بعض أبناء «العلماء والسيّاد والمراجع». فئة عقَّتْ، ولها في التاريخ شَبه، أما عقَّ ابن نوح؟ وهذا لا يعني أن الغزو الشيوعي بدأ مع

عهد عبد الكريم قاسم، فهناك من انتسب مبكراً للشيوعيّة مثل هاشم محسن الأمين، ابن المرجع، وقد انتسب للحزب في لبنان أواخر عام ١٩٣٨م.

وفُصل عام ١٩٤٩م[١]. وروى حسين مروَّة أنه عرف الشيوعيّة في النجف عندما كان يطلب العلم الديني، فتخلّى عن متابعة دراسته وعاد إلى لبنان ليكون منظراً في فكر كارل ماركس. وشكا الشيخ كاشف الغطاء عام ١٩٥٧م من شراسة الحملة الشيوعية الإلحاديّة، وأشفق على الشباب المسلم من الضّياع.

أحسَّ الشيوعيون بقوتهم في العراق فمارسوا - بدعم من السلطة العراقية - أعمال الشغب ضد المسلمين، وشنّوا حملة تطهير ضد الإسلام وإعلان الحكم الشيوعي، فأحرقوا المصاحف، واعتدوا على المساجد والمدارس ومراقد الأئمة في بغداد والكاظميين وكربلاء وكركوك، والموصل..

وردّدوا شعارات ضد الإسلام. منعت الشيوعيّة الدين: المسيحي والإسلامي في دول الاتحاد السوفياتي وسعت إلى إلغائه في العراق الشيوعي.. تصدّت المرجعيّة للتيار الماركسي بزعامة المرجع السيد محسن الحكيم وتمَّ تأسيس «جماعة العلماء» عام ١٩٥٨م برئاسة الشيخ مرتضى آل ياسين، ولم تعلن الجماعة إلا عن اسم رئيسها. الأعضاء

(١) مجلة الراية: عدد ٥٤، تاريخ ٢٧/ ٥/ ١٩٩١ص٤.

هم: الشيخ محمد جواد آل راضي والسيد محمد جمال الهاشمي، والشيخ محمد رضا المظفّر[١].

هدفت (جماعة العلماء) إلى تحصين الأمّة الإسلاميَّة من المدّ الشيوعي، وأصدرت فتوى بتكفير الشيوعيين، وقامت بنشاطات ممنهجة، تعيدُ اللحمة بين الإسلام، والشباب الطّامح إلى ثقافة عصريَّة.

البعث والغزو العسكري:

انتهت مرحلة الشيوعيين مع انتهاء عبد الكريم قاسم. ليأخذ البعث دورهم. استغل البعثيون نضال المرجعيَّة وفتاويها ضدّ الشيوعيَّة، وتسلّقوا على شعارات الإسلام والقومية وصولاً إلى السلطة عام ١٩٦٨. وكانوا يعرفون مدى استجابة الجماهير للمرجعيَّة وأيقنوا بالخطر الذي تحمله ضد حكمهم، فأعلنوا حربهم عليها. وسخّروا مقدّرات العراق وقوته لضربها، وإذلال الجماهير التي تدعمها، وانسرب الصرّاع في تيارين: ثقافي وعسكري.

في الصراع الثقافي خطّط البعث العراقي لضرب الإسلام بتوجيه من الاستعمار. منذ القرن التاسع عشر سعى الاستعمار إلى السيطرة على البلاد العربية، فاصطدم بمناعة الإسلام ذاك المارد المعوِّق لتحركات الاحتلال. فالإسلام الذي ترسَّخ في نفوس المؤمنين لا تزيله المغريات الماديّة ولا الترهيب، لأن المؤمن غايته النصر أو الشهادة.

(١) مذكرات السيد محمد باقر الخُرْسان.

لقد عجز الاستعمار الغربي، خلال قرن من الزمن، عن إلغاء الإسلام أو تبديد إشراقاته في نفوس المسلمين، وظلّت الروح العدائية للاستكبار متوقّدة تتوهّج من الشعارات الإسلامية، الصلاة ترفض الخضوع لغير الله، والصيام يربّي إرادة المسلم ليقهر الأعداء، والرمز العظيم «الله أكبر» يوقظ الفرد ويشحنه بقوّة (بدريَّة) تصفع الطّغاة و«محمد رسول الله» عبارة سحريَّة تجعل قائلها بطلاً لا يرهب الموت. شكا ممثلو الاحتلالات الغربيّة «الفرنسي، البريطاني، الإيطالي..» من صلابة الإسلام والقرآن ومحمد ﷺ حتى اقترح (كرومر) على وزراء هذه الدول في أحد اجتماعاتهم أن يحتلوا المدينة وينبشوا قبر النبي محمد ﷺ، وأن ينقلوا رفاته إلى متحف (اللوفر) في باريس، إنهاءً لمعجزة محمد ﷺ الذي يعيش في نفوس المسلمين ويمدهم بعزم لا يُقهر.

ما استطاع الغرب أن يقهر الإسلام الذي تحدّى قوّة الأخصام الماديَّة، وأقلقهم وأخرجهم من بلادنا عنوة بعد جهاد غني بالشهادة توَّجته أخيراً الجزائر بمليون شهيد مقابل هزيمة فرنسا.

عمد الغربيون إلى استراتيجيَّة جديدة هي خلق الأحزاب القومية التي ترتبط بهم، وتصارع الإسلام، ودعوا إلى إحياء القوميات البائدة: الفرعونية والفينيقية والأشوريَّة. ثم نجحوا في تحديث الاستعمار، أي التسلط غير المباشر بتنصيب حكام للعرب هم من نوع (الصعاليك الأخسَّاء) يحكم الاستكبار بلادنا بواسطتهم.

لما تسلَّم البعث العراقي الحكم خشي الصحوة الإسلاميَّة، وخاف دور المرجعيَّة، لذلك فصم الرابط التاريخي بين الإسلام والعروبة. وحمل معول الهدم وراح يخرِّب مؤسسات الإسلام. ألغى المدارس الدينية في النجف وبغداد مثل مدارس الزهراء والإمام الجواد والإمام الكاظم عليهم السلام.. وأقاموا مدارس عصريَّة ألزموا الأهالي بإرسال أولادهم إليها، وكانت مناهج الدراسة تحمل روحاً عدائيَّة للإسلام. وحذفوا الشعارات الإسلاميَّة من الحياة اليوميَّة. ندَّد الشهيد الثالث (محمد باقر الصدر) بالروح العدائيَّة التي مارسها حكام العراق ضد الإسلام، في جملة بيانات، جاء في أحدها، وقد وزِّع بتاريخ ٢٠ رجب ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م. «أودّ أن أؤكد للمسؤولين أن هذا الحكم الذي فرض بقوَّة الحديد والنّار على الشعب العراقي، وحَرَمه من أبسط حقوقه وحريَّاته، من ممارسة شعائره الدينيّة، لا يمكن أن يستمر، ولا يمكن أن يُعالج دائماً بالقوَّة والقمع، وإن القوّة ما كانت علاجاً حاسماً دائماً إلاّ للفراعنة والجبابرة، أسقطوا الأذان الشريف من الإذاعة فصبرنا، وأسقطوا صلاة الجمعة من الإذاعة فصبرنا، وطوّقوا شعائر الإمام الحسين عليه السلام ومنعوا القسم الأعظم منها فصبرنا، وحاصروا المساجد وملؤوها أمناً وعيوناً فصبرنا، وقاموا بحملات الإكراه على الانتماء إلى حزبهم فصبرنا..».

هذه صورة عن الممارسات ضد الإسلام. ومن أساليبهم أن دسَّوا في صفوف العلماء جماعات من البعث ألبسوهم العمائم، وصاروا

يعلِّمون النّاس إسلاماً جديداً وضع تعاليمه الاستعمار وأظهرها على يد جماعات مشبوهة. أمام هذا التيَّار الحزبي الحاكم رأى بعض العلماء مقابلته بتيّار حزبي إسلامي فاستقدموا حزب التحرير الإسلامي أسسه (تقي النبهاني) في الأردن. لم يلق قبولاً في الأوساط النجفيَّة، لأنه كان يقول: بخلافة الحاكم الظّالم... وتمَّ استبداله بحزب (الدعوة الإسلامية) الذي ضمَّ علماء من السنّة والشيعة وانتسبت إليه جماعات في الأردن والعراق ولبنان.. حظّر حكام العراق حزب الدعوة، وشنوا حملة اعتقالات في صفوف العلماء بتهمة الانتماء إلى حزب محظور، واعتقلوا السيد الصدر أكثر من مرّة هادفين إلى إسكات صوت الحوزة...

الغزو العسكري

أمعن حكام بغداد في الطغيان، واستطاعوا بالظلم والقهر أن يهجّروا الإسلام من مساجده ومدارسه باسم عصرنة الإسلام. وعمدوا إلى ألوان التعذيب ضد الشعب العراقي المسلم، وتوزيع الاتهامات المفتراة، والاعتقالات، والسجن، والضرب، والمجازر، والقتل بأساليب متطوّرة همجيّاً... وبلغت الضحايا عشرات الآلاف... من الضحايا مجموعات تجّار كانوا يدعمون المرجعيَّة بالأموال، فاتُهِموا بالتجسُّس وأعدموا عام ١٩٦٩م على رأسهم عبد الحسين جيتا وامتدَّ الافتراء إلى أبناء السيد الحكيم المرجع الديني فاعتُقلوا وسُجِنوا ردّاً على النشاط المرجعي النّافذ للسيد الحكيم.

وهناك جماعات من العلماء أعدمهم النّظام المرتد على الإسلام: أمثال: الشيخ عارف البصري ورفاقه والسيد عز الدين قبّانجي وتوَّج جرائمه بمقتل السيد محمد باقر الصدر، وشقيقته آمنة (بنت الهدى). وقد حاول الشهيد الثالث أن يطوّر المرجعيّة وينقلها من المرجعيَّة الذاتية (الفردية) إلى المرجعيّة الصالحة (الموضوعيَّة) أي تحويلها إلى مؤسسة

تمتلك جهازاً منظّماً تديره لجان[١] مهمتها تطوير شكل الممارسة للعمل المرجعي.

قصَّة الشهيد الثالث مع البعث تحكي قصوراً حضارياً لحزب فاشي، وتكشف نيرونيّة قادة جبناء، أُسُودٌ على شعوبهم ونعامات ربداء تجفُل من صفير الصافر أمام العدو الإسرائيلي.

الصدر أحد مفكّري العصر، وصاحب نظريات فلسفيَّة واقتصادية وسياسيَّة وفقهيَّة، وتشريعيَّة قانونيَّة... له «اقتصادنا، وفلسفتنا، والبنك اللاربوي في الإسلام...». رفض الظلم البعثي للإسلام، مثلما رفض جدُّه الحسين عليه السلام الظلم الأموي، لكنه لم يخرج شاهراً سيفه، خرج شاهراً الكلمة فقتله يزيد العصر، معبِّراً عن عبثيَّة همجيَّة لا تتماشى مع حضارة القرن العشرين، أنف الاستعمار، والمحتل والمغتصب أن ينفذوها... إن حكام إسرائيل المحتلين، تحلّوا بتفوُّق حضاري في التّعامل مع المطران (كبوتشي) الذي حرّض الشعب الفلسطيني على الثورة ضد الاحتلال الصهيوني، اعتقلوه أكثر من مرَّة، لكنه ظلّ حاضراً في أذهان الشعب بكلماته الجريئة. شكّل خطراً على الصَّهاينة فسجنوه

(١) هذه اللجان هي أشبه بوزارات: ١ - لجنة لتسيير الوضع الدراسي في الحوزة (وزارة تربية وتعليم).
٢ - لجنة للإنتاج العلمي (مركز بحوث).
٣ - لجنة مسؤولة عن شؤون علماء المناطق.
٤ - لجنة الاتصالات (علاقات خارجية).
٥ - لجنة رعاية العمل الإسلامي (وزارة إرشاد).
٦ - لجنة مالية. (زارة ماليّة).
فاللجان لا تضم الأعمال العسكرية. [الصدر، أطروحة المرجعية].

عشر سنين، ثم أبعدوه عن فلسطين، ولم يقتلوه لأنه رجل دين يحمل فكراً نضاليّاً، مع أنه لم يترك مؤلفات فكريّة. ما استطاع التخلُّف المتغلغل في نفسيَّة حكام بغداد أن يسمح لهم بتقبُّل إشراقة إنسانيّة أو حضاريَّة، فيقلّدون الصّهاينة في تصرّفهم الحضاري، فيسجنون السيد الصدر أو يبعدونه إلى دولة أخرى. مع أن السيد الصدر عُدَّ مفكِّراً عالمياً، لقد قتلوه ليكون شاهداً على تخلفهم وعدائهم للفكر. وأمعنوا في العداء للإنسانيَّة عندما سحقوا شعبهم في شمال العراق وجنوبه بعدما انهزم هؤلاء الحكام في أول مواجهة، مع قوّات العدو الأميركي، (في عملية عاصفة الصحراء) شباط ١٩٩١م.

أين جيش المليون جندي؟ وأين الطائرات والصواريخ التي هاجمت الإسلام في إيران؟ ماذا فعلت مع العدو الأميركي وأعوانه؟ أكدت وكالات الأنباء، أن هذه الآلة العسكريَّة والحربيَّة قتلت حوالي تسعين جندياً أميركياً فقط وانهزمت ثم انكفأت لتسحق شعبها في الداخل الذي وقف ضد العدوان! في حين تؤكد وكالات الأنباء نفسها أن شاباً مسلماً لبنانياً قام بعمليَّة استشهاديَّة ضد مشاة البحريَّة (المارينز) في مطار بيروت بتاريخ ٢٣ تشرين أول ١٩٨٣م، وقتل منهم حوالي مائتين وخمسة وسبعين جندياً أميركياً، أي أضعاف ما قتله مليون جندي يقودهم حكام بغداد الجافلون إلى دهاليز الجرذان من صفير الطّائرات الأمريكية.

وكيف يفسّر الناس استماتة الحكام العرب في القضاء على شعوبهم قتلاً وتجويعاً وتشريداً...؟ إنه القصور الحضاري، تعلنه المقارنة بين

حاكم يبيد شعبه ويدمر وطنه تشبثاً بحكم ذليل، تزيده طائرات أميركا ذُلاً وهي تعربد في سمائه، وتصفعه البعثاتُ الغربيَّة خسَّةً وهي تدمِّرُ سلاحه، وتفتش ثكناته ومؤسساته يوميّاً. لقد استعذب طعم الذل، واستقوى على شعبه، بعدما تخلّى عن مواجهة أميركا وأحلافها، وانصرف بما تبقى له من جيش يعمل جاهداً لتدمير المرجعيَّة الإسلاميَّة في النجف وربما كان هذا التدمير هو ثمن بقائه، وسكوت أميركا عن استمرار حكمه.

في العالم المتحضّر إذا خسر الحاكم معركة استقال، لكن في العالم العربي يخسر المعركة فيتحوَّل إلى بطل (صعلوكي) أو «دون كيشوتي».

وفي المقابل يقف العدو الصهيوني في تعامله مع الانتفاضة الفلسطينيَّة، وهو يمسكُ خيْطاً حضاريّاً، يَحْكُم تصرفاته في قمعها. ألا ترون أنه لو كانت الانتفاضة ضد حاكم عربي، يمتلك الأسلحة الإسرائيلية، لسحقها منذ اليوم الأول، ولدفن الأحياء والأموات، والأكواخ والقصور، والمدارس والمساجد، وسوّاها بالأرض؟. إنهم بعض صعاليك العرب أحفاد (أبناء آبائهم) أما قال (زياد ابن أبيه) لأهل البصرة[١]: «حرام عليَّ الطعام والشراب حتى أسوّيها بالأرض هَدْماً وإحراقاً». ذنبهم أنهم رفضوا حُكْماً ظالماً، وهم طُلاّب ديمقراطيَّة. بينما الصّراع بين العرب والصّهاينة هو صراع وجود وحياة...

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد: ٢/ ٣٧٧.

إن الشعب العراقي لا يطالب بتبديل هويته إنما استعادة أمجاده الإسلاميَّة - العربيَّة. تمسّك الشعب العراقي بهويته التاريخيَّة عن طريق الديمقراطيَّة، أعلنها الشهيد الثالث في أحد بياناته، وطالب في عمليّة تحدٍّ أن يرفعوا الإرهاب أسبوعاً واحداً ليعلن الشعب انتماءه. قال: «إذا كانت فترة عشر سنين من الحكم المطلق لم تتح لكم أيها المسؤولون إقناع الناس بالانتماء إلى حزبكم إلاّ عن طريق الإكراه، فماذا تأملون؟ وإذا كانت السلطة تريد أن تعرف الوجه الحقيقي للشعب العراقي، فلتجمِّد أجهزتها القمعيَّة أسبوعاً واحداً فقط، ولتسمح للناس بأن يعبِّروا خلال أسبوع واحد كما يريدون...»[١].

المرجعيَّة والنّظام العالمي الجديد:

يمثل التدخل الخارجي في شؤون المرجعيَّة أسوأ مراحل الاضطهاد؛ إذ تقود أميركا حركة التفاف حول المرجعيَّة النجفيَّة لتحجيمها ومن ثمّ السيطرة عليها. فيتاح لها التدخل في شؤونها، وتوجيه الفتاوى التي تصدر عنها. وهذا جزء من مخططها لإخضاع العالم لسلطانها، وبناء إمبراطوريتها الحديثة. لقد نجحت في تفتيت المعسكر الشيوعي، وربطه بنظامها الجديد، بعدما ضربت استراتيجيَّته الماديَّة بخلخلة اقتصاده، وتنصرف حالياً للهيمنة على المعسكر الإسلامي بدءاً من المرجعيَّة الشيعيَّة التي ترفض التبعيَّة والحاكم الظالم.

(١) بيان صادر بتاريخ ٢٠ رجب ١٣٩٩هـ.

وأيقنت أميركا أن المواجهة هنا أقوى، والصمود متجذّر لأن استراتيجيَّة الإسلام روحانيَّة، ثم ماديَّة. ويصعب محو الروحانيَّات المرتبطة بتعاليم إلهيَّة، وذات تاريخ مجيد، وحضارة إنسانيَّة. لذلك كلّفت الإدارة الأميركية (رابطة دراسات الشرق الأوسط) (ميسَّا) وضع دراسات دقيقة حول تاريخ المرجعية في النجف واستطلاع دورها في فتح باب الاجتهاد، وإصدار الفتاوى، وإعلان الجهاد، والتصدِّي لحكم المنافقين، والاستقلالية في الحقول المالية والسياسية والفكريَّة، ومواصفات الفقيه الذي يصدر الفتاوى وينال صفة المجتهد والمرجع... هذه الحقائق المتجذرة في نفوس الفقهاء، وأمَّة المقلِّدين، وضعت أميركا في الموقف الحرج لمواجهة المرجعيَّة الإسلاميَّة في النجف وقم. وجعلتها تسمح ببقاء النظام العراقي، وتشجعه سرّاً على ضرب خط المرجعيَّة في العراق، مع التظاهر بحماية المرجعيَّة لكسب ودِّها، أو تمزيقها باستقطاب جماعات علمائية تنخدع بالمغريات الأميركية. وتحقيقاً لمخططها أعلنت حظراً على الطيران العراقي في جنوب البلاد. وهو حظر شكلي يُنتهك باستمرار لضرب تجمعات الانتفاضة الإسلاميَّة، وهي غاية موحّدة لواشنطن وبغداد، تبغيان منها إنهاء المرجعية أو إخضاعها، وأخيراً كشف (كلينتون) عن مؤامراته وطلب محاصرة المرجعيَّة الفقهيَّة لخوض معركة ضد الحضارة الإسلاميَّة المتجدِّدة. وحاول التدخل في تعيين المرجع بعد وفاة زعيم الحوزة السيد الخوئي. وعُقِدَ اجتماع في واشنطن ضمَّ رجال دين من

المعارضة العراقية، ومسؤولين أميركيين من الإدارتين السابقة واللاحقة برئاسة (إدوار دجيرجيان) مساعد وزير الخارجية الأميركي المكلّف بملف المعارضة العراقية، وشؤون الشرق الأوسط، وأوضح (دجيرجيان) أنهم يرفضون المراجع التي تعينها بغداد وطهران، ويلمحون إلى تدخّل في التعيين على غرار ما يفعلون في تعيين الحكام السياسيين في بلادنا، ومهما تستفيض أميركا في دراساتها وتدخلاتها فمكتوبٌ لها الإخفاق والفشل لأن التقليد عند الشيعة ينبع من القناعات النفسيَّة للفرد بالمرجع الأعلم والأتقى والأبعد نظراً.. ولا تستطيع أن تفرضه الأنظمة والجيوش على الأمَّة الشيعيّة. إنه العقيدة واستمرار الوجود.

خاتمة

حكاية علي مع النجف ترصدها القدسيّاتُ المكانيَّة، ولد في الكعبة، وترعرع في مكّة، هاجر إلى المدينة، ودافع عنها بسيفه، ولولاه أعادوها إلى اليهوديَّة والشرك.. واستشهد في مسجدٍ صلَّى فيه ألف نبيّ، بعد الشهادة حضنته النَّجف في ضريح ادَّخره له آدم ونوح... وبهم صارت النّجفَ الأشرف.

شاء الله للنجف أن تأخذ من علي علمه وشجاعته؛ فكانت ألقَ معرفة ووهْج نضَال.. مع كل صباح تشتاق الشمس مغازلة المآذن والقباب المذهَّبة؛ يلتهب الوهج، يتوزَّع حركةً مضيئة، ينفر إليها عشاق المعرفة، ينابيع الإسلام تضخُّ علوم القرآن، والحديث رواية ودراية، وفقه الرَّسول وآل بيته الطّاهرين. «لكلٍّ شرعةٌ ومنهاجٌ» اللغات، الأخلاق، علم الكلام، الحكمة، الفلسفة، الشعر، التاريخ... مع الزمن تحوَّلت بيوتُها إلى مدارس، ومنتديات، ومكتبات، تواكب التطورات الحضاريّة.. غير بعيدٍ من النجف خاض أولاد علي حرباً جهاديّة للإصلاح في أمّةِ محمد.. علَّمهم علي كيف تكون الشهادة،

الأب في النجف والأبناء في كربلاء، وترتسم ثورات تنادي للإصلاح في أمَّةِ الإسلام، وتحرسه من الانحرافات الجاهليَّة. . .

كُتُب صدرت للمؤلف

١ - تاريخ بعلبك السياسي والثقافي. جزآن ط١، بيروت مؤسسة الوفاء ١٩٨٤. ط٢، بيروت، قمر العشيرة ٢٠٠٤.

٢ - ذو الرمّة شاعر الصحراء، بيروت، مؤسسة الوفاء ١٩٨٤.

٣ - ألوان الكلام. بيروت، مؤسسة الوفاء ط١، ١٩٨٥، ط٢، ١٩٨٧.

٤ - تاريخ كرك نوح. منشورات المستشاريَّة الثقافيَّة للجمهورية الإسلاميَّة الإيرانيَّة بدمشق ١٩٨٥.

٥ - الأدب السياسي الملتزم بالإسلام. بالاشتراك مع د. صادق آئينه وند. بيروت، دار التعارف ١٩٨٦.

٦ - خليل مطران بين التّقليد والتجديد. بيروت، دار الفتوى ١٩٩٣.

٧ - الحركات الحزبيّة في بعلبك. بيروت، مؤسسة الوفاء ١٩٩٤.

٨ - الإمام الحسين قبس من نبوّة. بيروت، دار الغدير ١٩٩٧.

٩ - الوعي بمناهضة الغزو الصهيوني. بيروت، الوفاء ٢٠٠٠.

١٠ - نثر أحلى من الشّعر. بيروت، الدار الإسلاميّة ٢٠٠٢.

١١ - منهجيَّة البحث والتّأليف. مؤسسة الوفاء. بعلبك ٢٠٠٥.

١٢ - جمهوريّة الحكمة في نهج البلاغة. بيروت، دار القارئ ٢٠٠٩.

١٣ - الحياة الاجتماعية في بعلبك. بيروت، دار القارئ ٢٠٠٩.

١٤ - الحب في قرية جنوبيّة. بيروت، دار القارئ ٢٠١١.

١٥ - الطّاهرة (رواية). بيروت، دار القارئ ٢٠١٢.
١٦ - سيرة أهل البيت، تجلّيات للإنسانيّة. بيروت، دار القارئ ٢٠١٢.
١٧ - الإسلام والإنسان. بيروت، دار القارئ ٢٠١٣.

الفهرس

الفصل الأول: النجفُ، هويَّة

النجف ١٣
التّسمية: مادة (ن - ج - ف) ١٥
الغري ١٨
تاريخ النجف القديم ١٩
تاريخ النجف الإسلامي ٢٢

الفصل الثاني: النجف الحضاريّة

النجف الحضاريّة ٢٧
اللقاء الطلاّبي ٢٩
النِّساخة والطّباعة ٣١
الصحافة النجفيَّة ٣٤
المكتبات ٣٧

المنتديات الأدبيَّة ٤٠
مناصرة اللغة العربية ٤٣

الفصل الثالث: النجف وَهْج نضال

النجف وهج نضال ٤٩
في العهد التركي ٥١
الاستقلال الذاتي ٥٢
مع شاهات إيران ٥٤
مجاهدة الانكليز ٥٦

الفصل الرابع: النجف ألَقُ المعرفة

النجف ألَقُ المعرفة ٦٣
تاريخها العلمي ٦٥
مدارس النجف ٦٩
التفرّغ الجامعي ٧٣

الفصل الخامس: المرجعيَّة

المرجعيَّة ٨١
المرجعيَّة الإماميَّة (الولاية) ٨٢
المرجعيَّة العلمائية ٨٤

المرحلة الأولى: علاقة فرديَّة بين الناس والمجتهدين ٨٧
المرحلة الثانية: تشكيل جهاز المرجعيَّة ٨٧
المرحلة الثالثة: تمركز المرجعيَّة ٨٧
المرحلة الرابعة: قيادة الأمَّة ٨٩
الموقع الاستقلالي للنّجف ٩١
الاستقلالية الماليَّة ٩٣
الاستقلاليَّة القضائية ٩٦
الاستراتيجيّة العدائية ٩٨
أساليب التنفيذ المعتمدة ضد المرجعية ٩٩
البعث والغزو العسكري ١٠١
الغزو العسكري ١٠٥
المرجعيَّة والنّظام العالمي الجديد ١٠٩
خاتمة ١١٣
كتب صدرت للمؤلف ١١٥
فهرس الموضوعات ١١٧